

صونيتشكا

رواية

الطبعة
٢

لودميلا أوليتسكايا

جائزة
جيوزيبية
أتشربي

جائزة
مديسيس
للرواية
الأجنبية



لودميلا أوليتسكايا

صونيتشكا

رواية

ترجمها عن الروسية

عياد عيد



الكرامة

صونیتش



الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي: Сонечка

حقوق النشر © لودميلا أوليتسكايا ١٩٩٥، ٢٠١٤

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

حقوق الترجمة © محترف القول الجريء

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

نشر هذا الكتاب بالاتفاق مع Elkost International Literary Agency
وبدعم كريم من برنامج ترانسكربت في مؤسسة ميخائيل بروخوروف



Milcha
Protchhorov
Fund



transcript

أوليتسكايا، لودميلا.

صونيتشكا: رواية / لودميلا أوليتسكايا؛ ترجمة عياد عيد - القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.

١٤٤ ص ٢٠١ سم.

تدمك: 9789776467354

١ - القصص الروسية.

أ - عيد، عياد (مترجم).

ب - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٦٨٩ / ٢٠١٥

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣

صورة الغلاف وتصميمه: عمرو الكفراوي

منذ الطفولة المبكرة، وما إن تخطت «صونيتشكا» أعوامها الأولى، حتى غرقت في القراءة، وكان متندرُ المنزل - شقيقها الأكبر «إيفريم» - يُردد باستمرار الدعاية نفسها التي بدت قديمة الطراز مذ أطلقها:

- لقد اكتسبت مؤخرة «صونيتشكا» شكل الكرسي بسبب قراءتها التي لا تنتهي، واكتسب أنفها شكل الكمثرى.

لم يكن - يا للأسف - ثمة أي مبالغة في دعابته، فأنفها فعلاً مُبهم الخطوط وأشبه بالإجاصة، أما «صونيتشكا» نفسها فكانت طويلة القامة نحيلتها، وعريضة المنكبين، وذات ساقين جافتين ومؤخرة ضامرة لكثرة الجلوس، ولم يكن لديها من المفاتن سوى نهديها الكبيرين كنهود القرويات، واللذين نمواً مبكراً، وعلى نحو لا يتناسب مع جسدها النحيف. انحنى كتفاها واحدودب ظهرها، وكانت ترتدي

أثوابًا طويلة فضفاضة لخلجها من الثروة التي لا طائل منها في الأمام، والتسطُّح المقيت في الخلف.

شقيقتها الكبرى المتعاطفة معها، والمتزوجة منذ زمن طويل، تحدثت بشهامة عن شيء من الجمال في عينيها، لكن عينيها كانتا عاديتين، وغير كبيرتين، وعسليتين. صحيح أن رموشها الكثيفة كثافة نادرة قد نمت في ثلاثة صفوف، جاذبة إلى الأسفل حافة جفنها المتورِّم قليلاً، لكن لم يكن ثمة جمال خاص في هذا أيضًا، لا بل كان في الغالب مُزعجًا، لأن «صونيتشكا» حسيرة النظر، وتضع نظارات على عينيها منذ الصغر.

ظلت «صونيتشكا» تقرأ بلا انقطاع عشرين عامًا بالتمام والكمال، منذ السابعة من عمرها حتى صارت في السابعة والعشرين. وكانت تغرق في القراءة كمن تصاب بغيوبة فلا تستفيق منها إلا مع آخر صفحة من الكتاب.

امتلكت موهبة عجيبة في القراءة، أو ربما عبقرية من نوع خاص، وكان ولعها بالكلمة المطبوعة عظيمًا إلى حد أن الأبطال المتخيلين كانوا عندها في صف واحد مع مقربيها الأحياء، فكانت في نظرها عذابات «نتاشاروستوفا» النقية قُرب سرير الأمير المحتضر «أندريه» مساوية بصدقها للمصيبة الأليمة التي لحقت بشقيقتها حين فقدت ابنتها

ذات الأعوام الأربعة بسبب إهمالها الغبي، حيث راحت تُثرثر مع جاريتها ولم تلاحظ كيف سقطت طفلتها السمينة الخرقاء ذات العينين الناعستين في البئر.

ما هذا؟ أهو عدم فهم تام للعبة التي يبنى عليها أي عمل فني، وسرعة تصديق مذهلة من طفلة لم يكتمل نموها بعد، وانعدام مخيلة يؤدي إلى تحطيم الحدود بين الوهمي والواقعي؟ أم أنه - على العكس من ذلك - ابتعاد منكر للذات إلى منطقة المتخيل، يجعل كل ما هو واقع خارج حدوده بلا معنى وبلا محتوى؟

لم تكن قراءة «صونيتشكا»، التي تحوّلت إلى شكل خفيف من أشكال الجنون، تفارقها حتى في أثناء نومها، فكانت بطريقة ما تقرأ مناماتها أيضًا. راودتها في أحلامها روايات تاريخية مشوقة، وكانت تُخمن من طبيعة أحداثها نوع خط الكتاب، وتشعر على نحو غريب بالفقرات والفواصل. أخذت هذه العزلة الداخلية المرتبطة بولعها المرّضي تتعمق في منامها، فصارت تبرز هناك كبطلة مُطلقة، أو بطل مُطلق، على الحافة الضيقة بين إرادة الكاتب التي تعرفها سلفاً وسعيها الذاتي إلى الحركة والفعل والسلوك...

كانت «السياسة الاقتصادية الجديدة» تلفظ أنفاسها الأخيرة، فاضطر الأب، سليل الحداد المحلي من

بيلاروسيا، والميكانيكيُّ بالفطرة والذي لا تنقصه المهارة العملية أيضًا، إلى أن يُغلق ورشة الساعات ويتغلب على نفوره العدواني المتأصل فيه من صناعة أي شيء في خطوط الإنتاج، والتحق بمصنع الساعات، على أن يروِّح عن نفسه في الأماسي بإصلاح الآليات الفريدة التي ابتكرها من سبقوه، ومن شتى الأمم، بأياديهم المفكرة.

أمها، التي تضع على رأسها شعرًا مُستعارًا تحت منديل نظيف أخرق ومزركش بدوائر كالبازلاء، ظلت حتى مماتها تخطط لجاراتها سرًّا، على آلة «السينجر»، الملابس القطنية البسيطة التي تتماشى مع زمن الفقر والضحيج ذاك، والذي انحصرت مخاوفه كلها لديها في اسم المفتش المالي المرعب.

أما «صونيتشكا»، وبعد أن تنهي دروسها كيفما اتفق، فكانت تتملَّص كل يوم وكل دقيقة من ضرورة العيش في أعوام الثلاثينيات المضطربة والصاخبة، لترعى روحها في رحاب الأدب الروسي العظيم، فتسقط تارة في الهاويات المقلقة لدى «دوستوفسكي» المريب، وتخرج تارة إلى ممرات «تورغينيف» الظليلة، وإلى البيوت الريفية المدفأة بالحب السخي واللامبدي لدى «ليسكوف»، الكاتب من الصنف الثاني لسبب لا يعلمه أحد.

أنهت المعهد المتوسط في إدارة المكتبات، وصارت تعمل في مستودع الكتب في قبو المكتبة القديمة، وكانت واحدة من السُّعداء النادرين الذين يغادرون في نهاية يوم العمل القبو المغبر والخانق بألم خفيف ناجم عن انقطاع المتعة: فلم يكن يتسنى لها أن تشبع خلال اليوم لا من صفوف بطاقات الفهارس، ولا من ورقات الطلبات البيض التي كانت تأتي من صالة القراءة في الأعلى، ولا من الثقل الحي للمجلدات المتدلية من يديها النحيلتين.

ظلت أعوامًا كثيرة ترى في مهنة الكتابة نفسها عملاً مُقدَّسًا، وكان في نظرها الكاتب من الدرجة الثانية «بافلوف» بمعنى من المعاني في المستوى نفسه من الجدارة مع «بوسانياس» و«بالاماس» - على أساس أنهم شغلوا الصفحة نفسها في المعجم الموسوعي. لكنها تعلَّمت على مر السنين أن تميز بنفسها، في محيط الكتب الهائل، بين الأمواج الضخمة والأمواج الضحلة، وبين الضحلة وزبد الشاطئ الذي يملأ خزانات قسم الأدب المعاصر الزاهدة عن آخرها.

بعد أن عملت «صونيتشكا» عدة سنوات في مستودع الكتب مثل ناسكة مُنقطعة عن الدنيا، استسلمت لإلحاح

رئيستها الشغوفة بالقراءة مثلها، وقررت الانتساب إلى الجامعة في قسم فقه اللغة الروسية. بدأت تتحصّر على أساس برنامج كبير وأخرق، وكادت أن تتقدم للامتحانات، لكن كل شيء انهار وتبدّل في غمضة عين، فقد بدأت الحرب.

ربما كان هذا هو الحدث الأول الذي أجبرها، خلال فترة شبابها كلها، على الخروج من ضباب القراءة المستمرة الذي كانت غارقة فيه. فقد أُجليت إلى مدينة «سفيردولوفسك» مع أبيها الذي كان يعمل في تلك السنين في ورشة لصناعة الأدوات، وسرعان ما وجدت نفسها هناك في المكان الأمين الوحيد - في قبو المكتبة...

لم يكن واضحًا إن كان هذا تقليدًا معششًا منذ قديم الزمان في موطننا - أن تحجّب لزامًا ثمار الروح الثمينة في الأقبية الباردة مثل ثمار الأرض - أم أنه لقاح وقائي للعقد اللاحق من حياة «صونيتشكا»، الذي عليها أن تقضيه مع الرجل الخارج تحديدًا من أقبية الحياة السرية، زوجها المستقبلي الذي ظهر لها في هذا العام الأول المظلم والصعب من نزوحها.

جاء «روبرت فيكتوروفيتش» إلى المكتبة في ذلك اليوم

الذي حلَّت فيه «صونيتشكا» محل المديرية المريضة في تسليم الكتب. كان قصير القامة، ونحيلًا جدًّا، وأشيب الشعر، وما كان ليلفت انتباه «صونيا» لولا أنه سألها عن مكان فهرس الكتب باللغة الفرنسية. الكتب الفرنسية موجودة لكن فهرسها ضاع منذ زمن لعدم الحاجة إليه. وإذ لم يكن ثمة أحد من الزوّار في تلك الساعة من المساء التي تسبق إغلاق المكتبة، فقد قادت «صونيتشكا» هذا القارئ غير العادي إلى القبو، إلى الركن الأوروبي الغربي البعيد.

وقف مصعوقًا مدة طويلة أمام الخزانة، حانئًا رأسه جانبًا، وبوجه كوجه طفل مندهش لرؤية طبق من الفطائر، ووقفت «صونيتشكا» خلف ظهره، أطول منه بمقدار نصف الرأس، وقد تسمّرت هي نفسها بسبب الاضطراب الذي انتقل إليها.

التفت نحوها، ولثم فجأة يدها النحيلة، وقال بصوت خفيض ومُرتجف كارتجاف نور مصباح أزرق من الطفولة المحمومة:

- يا للروعة... يا للفخامة... «مونتين»... «باسكال»...

ثم أضاف مُتنهّدًا وهو لا يزال مُمسكًا بيدها:

- وبطبعات «الإلزيفيريين»...

تباغت «صونيا» المُتأثرة والمُتمكّنة جيّدًا من إدارة المكتبة:

- لدينا هنا تسعة من إصدارات «الإلزيفيريين».

نظر إليها نظرة غريبة من الأسفل إلى الأعلى، كما لو كان ينظر من الأعلى إلى الأسفل، وابتسم بشفتيه الدقيقتين مبيّنًا عن فمه الخالي من بعض الأسنان. تمهّل وكأنه همّ بقول أمر مُهم لكنه تراجع وقال شيئًا آخر:

- أعطني من فضلك بطاقة قارئ، أو ماذا تُسمونها؟

سحبت «صونيا» يدها المنسية بين راحتيه الجافتين، وصعدا إلى الأعلى على السلم البارد جدًّا الذي يسلب الدفء الشحيح من كل قدم تلامسه... راحت هنا، في الصالة الضيقة من البناء الثري القديم، تخط أول مرّة بيدها لقبه، الذي لم تسمع به من قبل قطُّ، والذي سيصير لقبها بعد أسبوعين بالتمام والكمال. وفيما كانت تكتب الحروف الخرقاء بقلم الحبر الخشبي الذي أخذ يفتل ببطء في قفاها الصوفي المرتق، راح ينظر إلى جبينها النظيف، وبتسم في قرارة نفسه من شبهها العجيب بجمل فتى وصبور ولطيف، ويفكر: «حتى لونها أسمر وعنبري حزين ووردي دافئ...».

انتهت من الكتابة، ورفعت بسبابتها نظارتها المنزلة،

ونظرت بود وترقّب خالٍ من الاهتمام: فهو لم يُملِ عليها
عنوانه.

إحساسه بفعله القدر، الذي خامره بقوة، وانهاه عليه
كالمطر الشديد من أعالي سماء صافية وساكنة، جعله
يرتبك ارتباكًا شديدًا: لقد أدرك أن مَنْ تقف أمامه هي
زوجته.

أكمل منذ وقت قريب السابعة والأربعين، وكان أسطورة
حية، لكن هذه الأسطورة، وبفضل عودته المفاجئة إلى
الوطن من فرنسا في بداية الثلاثينيات، والتي عدّها
أصدقاءه غير مسوغة، بدت مُنقطعةً عنه، وأكملت حياتها
على الشفاه في دهاليز صالات العرض المحتضرة في
باريس المحتلة، جنبًا إلى جنب مع لوحاته الغربية، التي
انبعثت بعد أن تعرّضت للشتائم وطواها النسيان، لتنال
مجد ما بعد الموت. لكنه لم يكن يعرف ذلك. وها هو
في سترته القطنية السوداء المبطّنة والمستعملة كثيرًا،
لأفًا حول رقبتة ذات تفاحة آدم الكبيرة منشفة رمادية،
أسعد التّعساء بعد أن قضى مسجونًا مدة تافهة لم تتجاوز
السنوات الخمس، وبات يعمل مؤقتًا رسامًا في إدارة أحد
المصانع، يقف الآن أمام فتاة خرقاء وبيتسم، مُدركًا أنه
في هذه اللحظة يرتكب في قرارة نفسه خيانة أخرى من

الخيانات التي تمتلئ بها حياته المُتقلِّبة: فقد خان دين أجداده، وخان آمال والديه، وخان حُب مُعلِّمه، وخان العلم، وقطع أو اصر صداقاته بقسوة وحِدَّة ما إن بدأ يشعر بالقيود على حرّيته... أما هذه المرّة فقد خان العهد الأكيد بالبقاء عازبًا، الذي قطعه على نفسه في سنوات النجاح المُبكر والخادع، والذي لا شأن له بالعقّة مُطلقًا.

كان مُحبًّا للنساء، فيأخذ منهن ولا يعطيهن، ويحصل على الكثير من الطاقة من هذا المنبع الذي لا ينضب، لكنه كان حذرًا جدًّا من التعلُّق بهن، ويخاف من أن يتحوَّل هو نفسه إلى طاقة لتلك الغريزة النسائية المُحيرة - الكريمة إلى أقصى حد مع مَنْ يأخذ منها، والشرهة بقسوة تجاه مَنْ يعطيها.

أما روح «صونيتشكا» الصاغرة والمحبوسة داخل شرنقة من آلاف المجلدات التي قرأتها؛ والمهدّدة على هدير الأساطير اليونانية الدخاني، وأنغام نايات القرون الوسطى الحادة والفاتنة للألباب، وحنين «إيسن» الضبابي العاصف، ومطولات «بلزك» المفصلة، وموسيقى «دانتي» النجمية، والأصوات الحادة لغناء حوريات «ريلكه» و«نوفاليس»؛ والمغوية بياس الروس العظماء التهذيبي والموجّه إلى قلب السماء نفسها - روح «صونيتشكا» الصاغرة لم تُدرك

لحظتها العظيمة تلك، وكانت أفكارها مشغولة فقط بأنها
ربما تُقدِّم على خطوة مغامرة حين تُسلِّم قارئاً كُتِّباً لا تملك
الحق في تسليمها إلا ضمن صالة القراءة...

قالت «صونيتشكا» باقتضاب:

- العنوان.

شرح القارئ الغريب قائلًا:

- إنني مُوفد في مهمة، وأقيم في إدارة المصنع.

طلبت منه «صونيتشكا»:

- أعطني إذن الهوية أو الإقامة.

راح ينقب في أحد جيوبه العميقة، ثم أخرج وثيقة
«مكرمشة». نظرت إليها طويلاً من خلال النظارة وهزَّت
رأسها:

- كلا، لا أستطيع، فأنت مُسجِّل في الريف...

مدت له «كيبيلي» (*) لسانها الأحمر، وخيل إليه أن كل
شيء قد ضاع، فدس الوثيقة في أعماق جيبه.

(*) أم الآلهة وكل من يعيش على الأرض، وقد انتشرت عبادتها في
بلدان كثيرة من العالم القديم. (المترجم).

قالت «صونيتشكا» بنبرة اعتذار:

-إليك ما سنفعله: سأسجّلها على بطاقتي على أن تُعيدها إليّ قبل مغادرتك.

أدرك حينئذ أن كل شيء على ما يُرام.

طلبت منه وهي تصر في صحيفة «مكرمشة» المجلدات الصغيرة الثلاثة:

- أرجوك فقط أن تعتني بها جيّدًا!

شكرها بصوت جاف وخرج.

فيما راح «روبرت فيكتوروفيتش» يُفكر بنفور بتقنية التعارف ومتاعب المُلاطفة، كانت «صونيتشكا» تنهي بلا استعجال يوم عملها الطويل، وتتحضّر للذهاب إلى المنزل. لم تُقلقها ولو قليلًا مسألة إعادة الكتب الثمينة الثلاثة التي سلّمتها بلا اكتراث لرجل لا تعرفه، بل كانت أفكارها محصورة كلها في الطريق الذي ستسلكه إلى المنزل عبر المدينة الباردة والمُظلمة.

تلك العيون النسائية الخاصة، الشبيهة بالعين الصوفية الثالثة، والتي تفتح لدى الفتيات في وقت مُبكر جدًا، لم تكن مُغمضة كلياً لدى «صونيا» - بل كانت على الأغلب مُتضيقه.

في صباها المُبكر، وحين كانت في الرابعة عشرة من عمرها، وقعت في غرام زميلها في الصف، «فيتا ستاروستين»، الوسيم وذو الأنف المدبب، وكأنها تنصاع لبرنامج جنس البشر القديم الذي كان يزوج الفتيات عبر آلاف السنين في مثل هذا العُمر الناعم. تجلّى عشقها هذا حصراً في رغبتها الجامحة في النظر إليه، لكن نظرتها الباحثة هذه لم تلتفت انتباه صاحب الوجه الجميل وحده، بل سرعان ما تعدته إلى زملاء الصف كلهم، الذين اكتشفوا انجذابها المُثير للاهتمام قبل أن تحسب لذلك حساباً.

جهدت كي تتمالك نفسها، وحاولت طوال الوقت أن تجد هدفًا آخر لعينيها - مستطيل السبورة، الدفتر، أو النافذة المُغبرة - لكن نظرتها كانت تعود من تلقاء نفسها وبعنادٍ كعناد سهم البوصلة نحو القذال الأصهب، وتبحث عن لقاء هذا السماوي البارد والجذاب... كانت «زويا» المتعاطفة معها قد همست لها كي لا تشرئب على هذا النحو، لكن لم يكن في مقدور «صونيتشكا» أن تفعل شيئًا، فعينها تبحث بنهم عما يروي ظمأها في ذلك الرأس الأصهب.

انتهى هذا كله بأشد ما يُثير الرُّعب، وعلى نحو لا يمكن نسيانه، فقد حدد «أونيغين» (*) المتوحش، والمُنهك من وطأة النظرة العاشقة، موعدًا للمُعجبة الصامته في ممر جانبي من الحديقة، ووجَّه لها على نحو مُهين وقاتل صفتين على وقع قهقهة استحسان من أربعة زملاء لهما تلطوا بين الشجيرات. وكان بالإمكان لوم هؤلاء الصبية المُتلصصين على فظاظتهم لولا أنهم قضوا عن بكرة أبيهم في الشتاء الأول من الحرب التي وقعت بعد ذلك. بدا الدرس التأديبي الذي لقتها إياه هذا الأمير ذو الثلاثة عشر عامًا مُقنَعًا إلى حد أن الفتاة مرضت، وسقطت طريحة

(*) بطل رواية «بوشكين»: «يفغيني أونيغين». (المترجم).

الفراش أسبوعين مُصابة بحمى شديدة. واضح أن نار العشق قد فارقتها على هذا النحو الكلاسيكي، وحين سُفيت وذهبت إلى المدرسة متوقعة إهانة جديدة، وجدت أن انتحار حسناء المدرسة «نينا بوريسوفا»، التي شنقت نفسها في الصف بعد انتهاء الدوام المسائي، قد غطى تمامًا على مغامرتها.

أما البطل «فيتيا ستاروستين» صاحب القلب القاسي، فكان في تلك الأثناء قد انتقل مع أهله، لحسن حظ «صونيتشكا»، إلى مدينة أخرى، وبقيت هي أسيرة إدراكها المرير لانقضاء سيرة حياتها الأنثوية انقضاءً تامًا، وهذا ما حررها حتى آخر حياتها من السعي إلى أن تعجب أحدهم أو تجذبه أو تفتنه. ولم تشعر تجاه قرباناتها المحظوظات لا بالحسد المُدْمَر ولا بالنفور المُضني للروح، وعادت إلى ولعها الجامح والمسكر - إلى القراءة.

... أتى «روبرت فيكتوروفيتش» بعد يومين، حين لم تعد «صونيتشكا» تعمل على تسليم الكتب. طلبها فصعدت من القبو، مُنبثقة من الثقب الأسود على ثلاث دفعات. لم تعرفه حسيرة النظر مدة طويلة، لكنها هزّت رأسها بعد ذلك كما تهزه لشخص تعرفه جيدًا.

قَرَّب كرسياً قائلًا:

- اجلسي من فضلك ...

جلس في صالة القراءة الصغيرة بضعة أشخاص مُرتدين ثيابًا دافئة، وكان الجو باردًا والتدفئة تكاد لا تعمل.

جلست «صونيتشكا» على حافة الكرسي. كانت طاقة قماشية مُبسطة مُلقاة على حافة المنضدة بالقرب من صرة راح الرجل يفضها بلا استعجال وبعناية شديدة.

نطق بصوته المُتألق قائلاً:

- نسيت أن أسألكِ المرة الماضية عن اسمك، فهل ستسامحيني؟

ابتسمت «صونيتشكا» لطريقة كلامه التي ما عادت تُستخدم منذ وقت طويل في الأحاديث العادية اليومية، وأجابت باقتضاب وهي تسرق النظر طوال الوقت إليه وهو يفض الصرة:

- «صونيا».

بدا وكأنه موافق:

- «صونيتشكا» ... هذا جيد.

أخيرًا، انزاح الغلاف، ورأت «صونيا» صورة بورترية نسائية مرسومة على ورقة خشنة بلون بُني لطيف كلون

الحبَّار. كان البورتريه رائعا، والوجه النسائي نبيلًا ودقيقًا
ومن زمن مختلف عن هذا الزمن. إنه وجه «صونيتشكا».
استنشقت قليلاً من الهواء فميّزت رائحة البحر البارد.

قال لها:

- هذه هديتي للزواج. لقد أتيت في الحقيقة كي أطلب
يدك.

وراح ينظر إليها مُترقبًا.

أمعنت هنا «صونيتشكا» النظر إليه للمرة الأولى: حاجبان
مستقيمان، وأنف مُدبب بشكل دقيق، وفم جاف بشفتين
مستويتين، وتجاعيد شاقولية على امتداد الخدين، وعينان
ذاويتان وذكيتان ومُتجهمتان...

ارتجفت شفتاها. ظلت صامته، مُسبلة عينيها. لقد رغبت
كثيرًا في أن تنظر مرة أخرى إلى وجهه المُعبرّ والجذَّاب،
لكن طيف «فيتيا ستاروستين» أطل عليها من خلف ظهره،
فثبتت ناظريها على خطوط الرسم السهلة والمُتعرجة بعد
أن كف فجأة عن أن يكون نسائيًا وعن أن يكون وجهها،
وتمت بصوت يكاد لا يُسمع لكنه بارد ومُتملّص:

- هل هذا مزاح؟

شعر بالرُّعب، فهو ما عاد يبني أي خطط منذ زمن: لقد

ساقه القدر إلى هذا المكان المُدْلهِم عند أعتاب جهنم،
وقد استُنْفدت تقريبًا رغبته المتوحشة في الحياة وما عاد
الغسق يبدو له من هذا الجانب من الوجود جذابًا، وها
هو الآن يرى امرأة أُنير داخلها بنور أصيل، وأحس فيها
زوجة تستطيع أن تمسك بيديها الهشتين حياته المُضناة
والمطروحة أرضًا، ورأى في الوقت نفسه أنها ستُشكّل
عناءً حلواً على كاهليه غير المُثقلين بهموم الأسرة، وعبئًا
على شجاعته الجبانة المُتهربة من فروض الأبوة والتزامات
رجل الأسرة... لكن كيف فكر... كيف لم يخطر في باله
من قبل... ألا تكون مُرتبطة بآخر، بملازم فتي أو بمهندس
يرتدى كبنزة مرتقة؟

ها هي «كيبيلي» تشاكسه مرة أخرى بلسانها الأحمر، وها
هي حاشيتها المرحية، المكونة من نسوة خليعات وقبيحات
يعرفهن كلهن، تتلوى في الظلال القمرية.

شرع يضحك بصوت أبح ومُصطنع، وقرب منها الورقة
وقال:

- لم أمزح. لم أفكر وحسب بأنك قد تكونين مُتزوجة!

نهض وقد التقط قُبعته غير المعقولة:

- أرجو المغفرة!

انحنى بشدة على طريقة الضباط القديمة قاذفًا إلى الأسفل
برأسه الحليق، ثم تحرك نحو المخرج. عندئذ صاحت
«صونيتشكا» في إثره:

- توقف! كلا! كلا! لستُ مُتزوجة!

ألقي نحوها رجل مُسن جالس وراء منضدة للقراءة
نظرة استياء وهو مُمسكُ برزمة صحف. التفت «روبرت
فيكتوروفيتش»، وابتسم بشفتيه المستويتين، وتحول
ارتبাকে الأخير، الذي ولده شكه بأن هذه المرأة تتملص
منه، إلى ارتباك أشد لأنه لم يعرف مُطلقًا ما الذي ينبغي
عليه أن يقوله أو يفعله الآن.

من أين ظهرت القوة لدى «روبرت فيكتوروفيتش» المُنهك و«صونيتشكا» الهشة بطبيعتها، وسط صحراء حياة النزوح القاحلة، ووسط الفقر والشعور بالقمع والشعارات المسعورة التي تكاد لا تستر الرُّعب الدفين لشتاء الحرب الأول، لكي يرسم حياة جديدة مُغلقة ومُنعزلة مثل برج من أبراج السفانيين، لكنها تتسع بأدق التفاصيل لماضييهما المُنفصلين: حياة «روبرت فيكتوروفيتش» المُتعرِّجة مثل حركة فراشة ليلية عمياء بما فيها من انعطافات عاصفة ومفرحة من الدراسات اليهودية إلى الرياضيات وأخيرًا إلى قضية حياته الأهم، وهي طلاء الألوان الخالي من المعنى والجذاب كما عرّف عن مهنته بنفسه، وحياة «صونيتشكا» التي تستمد طاقتها من اختلاقات الآخرين الكاذبة والأسرة في الكتب؟

أما الآن فقد ملأت «صونيتشكا» حياتهما المشتركة بنوع من انعدام التجربة السامي والمُقدَّس، وبتعاطف غير محدود مع كل ما هو مُهم وراقٍ وغير مفهوم المحتوى كلياً مما كان يصبه على رأسها «روبرت فيكتوروفيتش»، من غير أن يكف هو نفسه عن الاندهاش من الكيفية التي راح فيها ماضيه يتجدد ويكتسب محتوى جديداً بعد أحاديثهما الليلية الطويلة. تبين أن جلساته الليلية مع زوجته قد شكلت آلية سحرية لتطهير ماضيه، شبيهة بملامسة حجر الفلسفة...

تذكر «روبرت فيكتوروفيتش» أن العامين الأولين من الأعوام الخمسة التي قضاها في المعتقل كانا ثقيلين خصوصاً، أما بعد ذلك فقد انصاع على نحو ما لقبده، فصار يرسم البورتريهات لزوجات المسؤولين، وينسخ ما يطلب منه عن نُسخ... كانت الرسوم الأصلية صوراً بائسة من الفن الساقط، وكان «روبرت فيكتوروفيتش» يسلي نفسه عادة بأسلوب شكلي وهو يُنفذها، كأن يرسم مثلاً بيده اليسرى. وقد حقق في أثناء ذلك اكتشافاً عن الإدراك المتبدل للألوان باستخدام اليد اليسرى المؤقت. كان «روبرت فيكتوروفيتش»، بتنظيمه الداخلي، إنساناً ذا تكوين تقشفي، ويستطيع دائماً الاكتفاء بأقل ما يمكن،

لكنه صار الآن، وهو المحروم خلال سنوات كثيرة مما كان يراه ضروريًا - معجون الأسنان، وشفرة الحلاقة الجيدة، والماء الساخن اللازم للحلاقة، ومنديل الأنف، والمناديل الورقية - يفرح لكل صغيرة من الصغائر، ولكل يوم جديد مُضاء بحضور زوجته «صونيا»، وللحرية النسبية لإنسان خرج بأعجوبة من المعتقل وملزم فقط بأن يُسجّل نفسه مرة في الأسبوع في قسم الشرطة المحلي...

عاشا أفضل من كثيرين غيرهما. خصصوا للرّسام في قبو إدارة المصنع غرفة بلا نوافذ قرب غرفة المراجل، فكان الجو دافئًا، ولم ينقطع التيار الكهربائي عنهما على الإطلاق تقريبًا. كان عامل المراجل يسلق لهما البطاطس التي يجلبها لـ «صونيتشكا» والدها، إذ كان يحصل على حصة إضافية من الغذاء بفضل مهارته التي لا حدود لها في العمل.

تحدثت مرة «صونيا» بشيء من الحماسة الخفيفة التي ليست من طباعها على الإطلاق، فقالت حاملة:

- سوف نتصر وتنتهي الحرب، وحينذاك سنعيش عيشة سعيدة...

قاطعها زوجها بجفاف ومرارة:

- لا تتوهمي، فنحن نعيش عيشة رائعة الآن أيضًا. أما في ما يخص النصر... فإننا سنظل، أنا وأنتِ، في عداد المهزومين أيًا كان المُنتصر من بين أكلة لحوم البشر! ثم أنهى كلامه مُتجهماً بجملته غريبة:

- من معلمي تعلمتُ ألا أكون من مشجعي «الأخضر» أو «الأزرق»، لا «بارموتاري» ولا «سكوتاري».

سألته «صونيا» بقلق:

- عمّ تتحدث؟

- لست أنا من يتحدث، إنه «ماركوس أوريليوس». كان الأزرق والأخضر لوني الأشواط في مضمار السباق. ما أردت قوله هو أنني لم أهتم قطُّ بأي فرس ستصل أولاً. هذا ليس مُهمًّا لنا، وفي الأحوال كلها من يهلك هو الإنسان وحياته الخاصة. نامي يا «صونيا»!

أحاط رأسه بالمنشفة - كانت لديه مثل هذه العادة الغريبة التي اكتسبها من المُعتقل - وغفا على الفور. أما «صونيتشكا» فاستلقت في العتمة طويلاً، وقد ألمها عدم اكتمال القول، وراحت تبعد عن نفسها خاطرة أخطر من عدم اكتمال القول هذا: إن لدى زوجها معرفة على قدر كبير من الخطورة والأفضل لها ألا تتدخل فيها. ثم

نقلت أفكارها القليقة إلى مكان آخر، نحو تتابع الضربات الخفيفة والدقيقة أسفل بطنها، محاولة أن تتخيل أصابع بطول رُبع عود الثقاب وهي تمر بخفة على الجدار الناعم لأول مسكن لها في ظلمة مُشابهة لتلك التي تحيط بها الآن، وابتسمت.

لفَّ الضباب موهبة «صونيتشكا» في إدراك الحياة في الكتب إدراكًا واضحًا وحيًا، وتخسَّبت على نحو ما، وتبيَّن فجأة أن أقل الأحداث أهمية في الجانب الآخر من صفحات الكتب - اصطياذ فأر في مصيدة يدوية الصُّنع، وتفتح غصن يابس وميت تمامًا في كأس، وحفنة شاي صيني حصل عليها «روبرت فيكتوروفيتش» بالمصادفة - أهم وأكبر من حب الآخرين الأول وموتهم، وأهم حتى من الانحدار نفسه إلى العالم السفلي، إلى ذلك الحد الأدبي الأقصى الذي التقى عنده تمامًا ذوقا الزوجين الشَّابيين.

عرفت «صونيا» منذ الأسبوع الثاني لزواجهما الخاطف شيئًا مُرعبًا في نظرها عن زوجها: إنه غير مُبالٍ كليًا بالأدب الروسي، إذ كان يراه عاريًا ومُتحيِّزًا ومُمتلئًا بالوعظ على نحو لا يُطاق. ولم يستثن منه سوى «بوشكين» وعن غير رغبة... انعقد نقاش بينهما جابه فيه «روبرت فيكتوروفيتش» سخونة «صونيتشكا» ببراهين باردة

وصارمة لم تفهمها تمامًا، ثم انتهى هذا المؤتمر المنزلي بالدموع المريرة والعناق الحلوة.

«روبرت فيكتوروفيتش» العنيد، والذي يترك الكلمة الأخيرة لنفسه دائمًا، وجد الوقت ليقول لزوجته الوسنانة في ساعة متأخرة قبيل الفجر:

- طاعون! هذه الشخصيات المرموقة كلها طاعون، من «جمالائيل» إلى «ماركس»... أما شخصياتكم فحدث ولا حرج... «غوركي» مُنتفخ كله، و«إيرنبورج» مرعوب حتى الموت، و«أبولينير» مُنتفخ أيضًا... انتفضت «صونيتشكا» عند ذكر «أبولينير»:

- هل عرفت «أبولينير» أيضًا؟

رد عليها بلا رغبة:

- عرفته. في أثناء تلك الحرب... تقاسمت وإياه المسكن شهرين. ثم نقلوني إلى بلجيكا قرب مدينة «إيبر». هل تعرفونها؟

تمت «صونيتشكا» منبهرة من سيرة حياته التي لا تنضب:

- نعم، غاز الخردل، أذكرها.

- الحمد لله إذن... لقد تعرّضت لذلك الهجوم بالغاز،

لكنني كنت على التلة من الجانب المعاكس للرياح لذلك
لم أتسمم. إنني كما تعلمين مُوفِّقٌ... سعيد الحظ...
ولكي يتحقق مرّة أخرى من حُسن حظه الاستثنائي
والمُتميز دس ذراعاه تحت كتفي «صونيتشكا».
لم يعودا بعد ذلك للحديث عن الأدب الروسي.

قبل ولادة الطفل بشهر، انتهت فترة إيفاد «روبرت فيكتوروفيتش» غير المحددة، والتي حاول إطالة أمدها بكل ما استطاع من جهد، فاستلم أمرًا بالعودة فورًا إلى القرية البشكيرية «دافليكانوفو»، حيث كان عليه أن يكمل مدة نفيه، مُتكلاً على المستقبل الذي ما انفكت «صونيتشكا» تراه رائعًا وظل هو يشك فيه بقوة.

راح أبوها وأمها، التي نال منها مرض الرئتين تمامًا، يقنعانها طويلاً بالبقاء في المدينة حتى تضع مولودها على الأقل، لكن «صونيتشكا» قررت بحزم السفر مع زوجها، كما أن «روبرت فيكتوروفيتش» نفسه لم يرغب في الابتعاد عن زوجته. وهنا تحديدًا لاح ظل الاستياء الوحيد لدى الساعاتي المُسن من صهره. كان هذا المُسن، الذي فقد حتى ذلك الوقت ابنه وصهره الأكبر، مُتوافقًا بصمت وعن

قرب مع «روبرت فيكتوروفيتش»: تبين أن الاختلاف في وضعيهما الاجتماعيين الآن، في هذا العالم المقلوب رأساً على عقب، ليس غير أساسي وحسب، بل كان على الأرجح يظهر التفوق الصوري للمثقف على البروليتاري. أما ما يتعلق بكل ما عدا ذلك فإن القسم الواقع تحت الماء من جبل الجليد الثقافي لديهما كان واحداً.

حضرت الأسرة «صونيا» للسفر مدة يوم - وهو الوقت الذي مُنح لـ «روبرت فيكتوروفيتش» كي ينهي شؤونه كلها. راحت الأم تقص على نحو حثيث حواف الأقمطة وهي تذرف الدموع الصفر وتلُفُّ برقة بإبرتها الدقيقة والعزيزة على نفسها صدرات أطفال مقصوفة من أحد قمصانها القديمة. أما شقيقة «صونيا» الكبرى، التي فقدت زوجها مؤخرًا في الجبهة، فكانت تحوك من صوف أحمر جوارب صغيرة وهي تنظر أمامها بعينين ساكنتين. راح أبوها يفرغ، في أكياس صغيرة، الدُخْن الذي استطاع الحصول على ثلث عِدْلِ منه، وهو ينظر طوال الوقت بشيء من الشك إلى «صونيا»، التي هزلت مؤخرًا كثيرًا إلى حد أنها لم تنقل الزر على تنورتها على الرغم من أنها في شهرها التاسع، ولم يكن حملها ظاهرًا من تغير شكل جسمها بقدر ما كان ظاهرًا من وجهها المُترهل وشفتيها المُتورمتين.

قالت أمها بصوت خفيض:

- بنت، ستكون بنتًا. البنات يسلبن الأمهات جمالهن
دائمًا...

هزّت الشقيقة رأسها بلامبالاة، بينما ابتسمت «صونيتشكا»
بارتباك وهي تردد في قرارة نفسها باستمرار: «ليتها تكون
بنتًا يا إلهي... ليتها تكون بيضاء...».

ليلاً، أجلسهما صديقهما عامل سكة الحديد في قطار صغير من ثلاث عربات مُتوقف على بُعد كيلومتر ونصف الكيلومتر عن المحطة، في عربة كانت لا تزال محافظة على آثار منشئها النيبيل المُتمثّل في واجهاتها الخشبية الجيدة. لكن عموماً، كانت الأرائك المريحة والمناضد القابلة للطّي منزوعة من أماكنها منذ زمن، واستعوض عن فخامة «البولمان» تلك بمقاعد خشبية.

ساروا من «سفيردولوفسك» إلى «أوفا» أكثر من يوم ونصف اليوم في عربة مُكتظّة عن آخرها، ولم يدرِ «روبرت فيكتوروفيتش» لماذا راح يتذكر طوال الطريق سفرته الطائشة في شبابه إلى برشلونة، التي اندفع فيها للتعرف على «جاودي» بعد أن حصل على نقود ضخمة عام ثلاثة وعشرين أو أربعة وعشرين.

غفت «صونيتشكا» باطمئنان طوال الرحلة تقريبًا، مُسندةً قدميها إلى عقدة البطانية المنفوشة، ومُلقيّة برأسها على كتف زوجها وصدره النحيل. أما هو فراح يتذكر طوال الوقت ذلك الشارع الملتوي والزاحف نحو الأعلى والذي قام فيه فندقه، ويتذكر النافورة المُستديرة الساذجة أمام النافذة، والوجه الأسمر ذا المنخرين المرسومين للموسم الجميلة جمالًا غير عادي التي راح يعربد معها ببذخ طوال ذلك الأسبوع البرشلوني. فتش في ذاكرته، وعثر بسهولة على تفاصيل صغيرة وساطعة: وجه النادل الشبيه بوجه البومة في مطعم الفندق، والحذاء الرائع المجدول من جلد العجل الأصفر الشاحب والذي اشتراه من محل «هومر» ذي اللافتة الزرقاء الضخمة، حتى إنه تذكّر أيضًا اسم تلك الفتاة البرشلونية - «كونتشيता»! كانت إيطالية، أصلها من «أبروتسو»... أما «جاودي» فلم يعجبه إطلاقًا.. بات الآن بعد ربع قرن، ومن خلال هذه التفاصيل كلها، يرى أمامه هذه الصروح الغريبة نباتية تمامًا، ومختلفة كليًا، وغير حقيقية...

عطست «صونيتشكا» واستفاقت قليلًا وتمتمت بكلمات ما، فضغط يدها الناعسة وعاد إلى ضواحي «أوفا»، إلى

«بشكيريا» المتوحشة، وابتسم هازئاً رأسه الأشيب وغير
مدرك تمامًا: «هل كنت أنا ذا هناك؟ هل أنا ذا الآن هنا؟
كلا، ليس ثمة أي واقع على الإطلاق...».

دار التوليد التي قاد «روبرت فيكتوروفيتش» إليها «صونيتشكا» مع اقتراب نهاية الحمل وظهور أول أعراض المخاض الوشيك، قامت على طرف قرية مستوية كبيرة في مكان مطروق وخالي من الأشجار. البناء نفسه كان فقيرًا ومُشيدًا من الطوب الطيني الممزوج بالقش، ونوافذه صغيرة وكثيرة.

كان الطبيب الوحيد، «بان جوفالسكي»، رجلًا أشقر محمرًا، تخطى مرحلة الشباب، وذا بشرة بيضاء رقيقة، لجأ إلى هنا قادمًا من بولونيا بعد أن كان حتى وقت قريب دكتورًا أنيقًا في «وارسو»، وكان علمانيًا ومُحبًا للنبيذ الجيد. وقف مُديرًا ظهره للداخليين من المرضى وقد برق بياض ثوبه الضارب إلى اللون السماوي، وراح يعرض على طرفي شاربه الأشقر على نحو غير لائق لكن مُهدئ،

ويمسح بقطعة من جلد «الشمواه» زجاج نظارته الكبيرة. كان يقترب من النافذة عدة مرّات في اليوم، وينظر إلى بقع العشب عديمة الشكل والمتسخة بالتراب، بدلاً من جادة «يروجولمسكي» المتناسقة التي تطل عليها نوافذ عيادته في «وارسو»، ثم يمسخ عينيه الدامعتين بمنديله الإنجليزي الأحمر ذي التريعات الخضراء وهو آخر منديل بقي لديه. كان قد انتهى للتوّ من فحص سيدة بشكيرية غير شابة أتت على حصان من على بُعد أربعين فرسخاً. صاح للمساعدة:

- شطّفي السيدة!

ووقف وهو يقاوم ارتجافاً لا إرادياً من الشعور بالإهانة في صدره، ويتذكّر بأسى مريضاته الحريريات، والروائح الحليبية الحلوة المنبعثة من أعضائهن التناسلية الثمينة والمُعنتى بها جيداً.

التفت حين أحس بحضور أحدهم خلف ظهره، فرأى امرأة شابة ضخمة جالسة على المقعد في معطف قديم فاتح اللون، ورجلاً حاد الوجه وأشيب الشعر يرتدي جاكيتاً مُرَقَعاً. بدأ الرجل يتحدث:

- لقد تجرأت على إقلاق راحتك أيها الدكتور.

أدرك «بان جوفالسكي» فيه، من نبرات صوته الأولى،

انتماءً إلى الطائفة ذاتها، إلى «الإنتلجنسيا» الأوروبية
المُضطهدة، فتحرك نحوه مُبتسمًا ابتسامة مَنْ يعرفه:

- أرجو كما... تفضلًا. هل أنت مع زوجتك؟

نطق «بان جوفالسكي» بذلك بشيء من الاستغراب بعد أن
لحظ الفارق الكبير في السن بينهما، الذي يسمح بافتراض
علاقة مُغايرة بين شخصين قلَّ أن يُناسب أحدهما الآخر
بالمظهر. أشار لهما نحو الستارة التي تحيط بمكتبه الصغير.

بعد مُضي خمس عشرة دقيقة أخرى فحص «صونيتشكا»
وأكد اقتراب الوضع، بيد أنه أمرهما بالصبر حتى العاشرة
عسى أن تسير الأمور سيرًا صحيحًا وفي وقتها الطبيعي.

وضعوا «صونيا» على الفراش المُغطَّى بمشمع صلد
وبارد، وربت «بان جوفالسكي» على بطنها بحركة أقرب
إلى البيطرية، ثم ابتعد نحو البشكيرية التي وضعت كما
اتضح طفلًا ميتًا قبل ثلاثة أيام، ثم سار كل شيء لديها
على ما يُرام، لكنه صار الآن على غير ما يُرام.

بعد ساعتين ونصف الساعة خرج الطبيب إلى المدخل
والدموع الكبيرة تنهمر على خديه الحليقين بعناية، إلى
حيث كان يُلازم «روبرت فيكتوروفيتش» مكانه كئيبيًا،
وهمس له في أذنه بصوت مأساوي:

- ينبغي إعدامي رمياً بالرصاص! لا أملك الحق في إجراء العمليات الجراحية في مثل هذه الظروف! ليس لدي أي شيء هنا، لكنني لا أستطيع ألا أجريها! ستموت بعد يومين بسبب التسمم!

سأله «روبرت فيكتوروفيتش» بلسان مُتخسب، وقد راح يتخيل «صونيتشكا» المحترضة:

- ماذا بها؟

- آه، يا إلهي! سامحني! كل شيء لدى زوجتك على ما يُرام، بدأ لديها المخاض. إنني أقصد تلك البشكيرية التعسة...

كز «روبرت فيكتوروفيتش» على أسنانه وأطلق في داخله شتيمة مُقدعة: لم يكن يطيق الرجال العصبيين الذين تتملكهم الرغبة في التعبير عن معاناتهم كل لحظة. مضغ بشفتيه ونظر جانبا.

كانت الطفلة ذات الكيلوجرامين، التي ولدتها «صونيا» خلال الدقائق الخمس عشرة التي راح «بان جوفالسكي» يتحدث فيها عند المدخل، بيضاء وضيقة الوجه كما تخيلتها «صونيا» تماما.

تبدّل كل شيء لدى «صونيتشكا» تبدلًا كليًا وعميقًا، وكأن حياتها السابقة قد أدارت لها ظهرها، حاملة معها الفحوى الكتبي الذي تهواه كله، وتاركة محله همومًا لا يمكن تخيلها - هموم الحياة المضطربة، والفقر، والبرد، والأفكار القلقة اليومية عن «تانيا» الصغيرة و«روبرت فيكتوروفيتش»، اللذين كانا يمرضان بالتناوب.

ما كانت الأسرة لتصمد لولا المساعدة الدائمة من الأب، الذي كان يتمكّن من الحصول على كل ما هو ضروري للحياة ويرسله إليهم. وكانت «صونيا» ترد على محاولات والديها كلها بإقناعها بالانتقال مع الطفلة إلى «سفيردولوفسك» بالرد نفسه: «علينا، أنا و«روبرت فيكتوروفيتش»، أن نعيش معًا».

حلّ الشتاء القاسي بلا أي نذير بعد صيفٍ ممطرٍ أشبه بخريف

لا ينتهي، وفي الكوخ المُتداعي والمبني من اللبن بدت تلك
الغرفة في قبو إدارة المصنع أشبه بفردوس استوائي.

كان الهمُّ الأساسي هو التدفئة، وكانت مدرسة سائقي
الحصّادات التي عمل «روبرت فيكتوروفيتش» مُحاسبًا
فيها تعطيه أحيانًا حصانًا، فيبدأ منذ الخريف يتردد كثيرًا
إلى السهب ليحصد الأعشاب اليابسة الطويلة، الشبيهة
بالقصب، والتي لم يحفظ اسمها على الرغم من كل شيء.
كانت زحافة مُحمّلة عن آخرها تكفيهم تدفئة يومين، كما
كان يعلم من تجربة ذلك الشتاء الذي قضاه في القرية قبل
السفر إلى «سفير دلوفسك».

كان يكبس الأعشاب، ويملأ الملحق بالقوالب التي
تصنعها يدها. نزع جزءًا من الأرضية التي مدها بنفسه في
وقت سابق من غير أن يُفكر حينذاك بضرورة بناء مكان
لحفظ البطاطس، ثم حفر قبوًا وجففه ودعمه بألواح خشبية
مسروقة. وبني مرحاضًا، ما جعل جاره «راجيموف» المُسن
يهز رأسه ويضحك ساخرًا: كانوا في هذه الأصقاع يرون
في اللوح الخشبي ذي الثقب المحفور فيه بذخًا فائضًا عن
الحاجة، ويدبرون أمورهم منذ قديم الأزل في ذلك المكان
غير البعيد الذي يُسمونه «في الهواء الطلق».

كان جلدًا وصلبًا، والتعب الجسدي يخفف عن روحه

عذاب النفور الحاد من حساب الأرقام المزيفة الذي لا معنى له، ومن تدبيج البيانات الكاذبة والعقود الوهمية المُتعلِّقة بإخراج المحروقات المنهوبة وقطع التبديل المسروقة والتي تُباع في السوق المحلية لبيع الخضار والمنتجات الزراعية الخاصة التي كان يديرها بستاني أوكراني ماكر ومرح، معدوم الحياء، ويده اليمنى معطوبة.

لكنه بالمقابل كان كل مساء يفتح باب منزله ليرى «صونيا» في ضوء مصباح الكاز الحي المتنفس نيراناً، وهي جالسة في الغمامة الملتمة بعصبية على الكرسي الوحيد، الذي أعاد تجهيزه ليصير أريكة، وقد التصق رأس الطفلة الرمادي، والمُشعث برقة مثل كرة التنس، بالنهاية المُدبية لثديها الشبيه بالوسادة. وكان هذا كله يتمايل وينبض بهدوء تام: موجات الضوء العصبي وموجات الحليب الدافئ غير المرئي وتيارات أخرى تجعله يتسمر وينسى إغلاق الباب. تُنبهه «صونيتشكا» بهمس ممطوط وهي تبتسم كلها مستقبلة إياه: «الباب!»، ثم تضع ابنتها بالعرض على السرير الوحيد، وتُخرج من تحت الوسادة قدرًا وتضعها في منتصف المنضدة الفارغة. كان ذلك في أفضل الأيام حساء كثيفاً من لحم الجياد والبطاطس المُقتلعة من البستان المجاور، والدُّخن الذي أرسله والدها.

كانت «صونيتشكا» تستيقظ عند الفجر بسبب حركة خفيفة للطفلة فتضمها إلى بطنها وهي تشعر بوجود زوجها بظهرها النعس. تفك أزرار الكنزة مُغمضة العينين وتسحب الثدي المتصلب مع حلول الصباح، فتضغط على الحلمتين ليسقط خيطان طويلان من الحليب على الخرق المبرقشة بالورود التي تمسحهما بها. تبدأ الطفلة تهمهم ضامة شفثتها، وتلمظ وتلتقط الحلمة مثلما تلتقط سمكة صغيرة غنيمة كبيرة. كان حليبها وافراً ويسيل بسهولة، وكان الإرضاع المترافق مع الوكزات الخفيفة والخلجات والعض الخفيف للثدي باللثتين الخاليتين من الأسنان يُدخل إلى نفس «صونيا» المتعة فيشعر زوجها بها على نحو لا يمكن إدراكه، ويستيقظ في الوقت المناسب في ساعة ما قبل الفجر هذه. يحضن ظهرها العريض، ويجذبها إليه بغيرة، فتذوب من ثقل السعادة المزدوج هذا الذي لا يمكن احتمالها، وتبتسم مع نور الصباح الأول ويُشبع جسدها بصمت وفرح جوع كائنين عزيزين وغير مُنفصلين عنها.

هذا الإحساس الصباحي كان يُنير يومها كله، فتنقضي أعمالها من تلقاء نفسها بسهولة وكفاءة، وكان كل يوم أوجده الله ينطبع في ذاكرة «صونيتشكا»، من غير اندماج مع الأيام المجاورة له، ومُنفصلاً تماماً عنها: تارة بالمطر

الخفيف عند الظهر، وتارة بطائر ضخم معوج الساقين بلون حديدي صديء يطير ويحط على السياج، وتارة بالخط المضلع الأول للسن المبكرة في لثة ابنتها المتفخة. لقد حفظت «صونيا» حتى آخر حياتها - من يحتاج إلى عمل الذاكرة المرهق والعبثي هذا؟ - صورة كل يوم بروائحه ومسحاته وخصوصًا، بجدية وعلى نحو مُبَالِغٍ به، كل كلمة يقولها زوجها في الظروف اللحظية كلها.

بعد مُضي أعوام كثيرة شعر «روبرت فيكتوروفيتش» بالدهشة أكثر من مرة من قوة ذاكرة زوجته المتشابكة والتي جمعت، على قعر محجوب، ركامًا كاملاً من الأعداد والساعات والتفاصيل. حتى اللعَب التي صنعها «روبرت فيكتوروفيتش» بمُجمَلها، بفرح إبداعٍ منسي منذ زمن، لابنته المُترعرعة تذكَّرتها «صونيا» واحدةً واحدة. ونقلت «صونيا» بعد ذلك إلى موسكو هذه القطع الصغيرة - الحيوانات المنحوتة من الخشب، والطيور الملفوفة من الحبال، والدُّمى الخشبية ذات الوجوه المُهدَّدة - لكنها لم تنس قَطُّ أيضًا ما تُرك منها لأبناء «راجيموف» وأحفاده، ذاك السرب من أفراخ الدوري الهزيلين والمتضامنين والمتشابهين: قلعة قابلة للتركيب من أجل الملك الدُّمية، ذات برج غوطي وجسر متحرك؛ وسيرك روماني مع عبيد

ووحوش من أعواد الثقاب؛ وتصميم ضخم له قبضة وعدد من اللويحات الملونة التي كانت تتحرك، وتفرقع، وتُصدر موسيقى متوحشة ومضحكة...

كانت هذه الابتكارات تفوق بكثير إمكانات اللعب لدى الطفلة الصغيرة. هذه الطفلة ذات الذاكرة الحادة، والتي احتفظت كأمها بكثير من الذكريات عن تلك الفترة، لم تتذكر هذه اللعَب، وربما يعود سبب ذلك جزئياً إلى أن «روبرت فيكتوروفيتش» بنى لها في «ألكسندروف»، التي انتقلت إليها الأسرة عام ستة وأربعين، مُدناً خيالية كاملة من الرقائق والورق المُلوّن، شكّلت مقاربات غنية لما سُمي لاحقاً العمارة الورقية. هذه اللعَب الهشة اختفت في أثناء تنقلات الأسرة الكثيرة في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات.

إذا كان النصف الأول من حياة «روبرت فيكتوروفيتش» قد انقضى في الاندفاعات الجغرافية الكبيرة والطائشة من روسيا إلى فرنسا، ثم إلى أمريكا والبلقان والجزائر، ومن ثمَّ إلى فرنسا من جديد، وأخيراً إلى روسيا مرّة أخرى، فإن النصف الثاني، المقضي في المعتقل والمنفى، قد مر في وثبات قصيرة: «ألكسندروف»، «كالينين»، «بوشكينو»، «ليانوزوفو». وهكذا فقد ظل يقترب عقداً

كاملاً من موسكو، التي لم تبدُ له على الإطلاق لا بمنزلة
أثينا ولا بمنزلة أورشليم.

أعالت «صونيتشكا» الأسرة في الأعوام الأولى بعد
الحرب، بفضل آلة الخياطة التي ورثتها عن أمها، والجرأة
البريئة للتعلُّم الذاتي الذي مكَّنها من وصل كُمِّ بتقوية
الذراع. لم يكن زبائنها متطلبين، وكانت الخياطة مجتهدة
من غير ذلك.

مارس «روبرت فيكتوروفيتش» أعمالاً لأشباه المعوقين،
فاشتغل حارس مدرسة تارة، وتارة أخرى مُحاسباً في
جمعية عمالية تنتج ملازم حديدية عجيبة مجهولة
الاستخدام. لم يكن «روبرت فيكتوروفيتش»، الذي تغدَّى
على خبز الحرية الباريسي، قادرًا حتى على أن يتخيل نفسه
وهو يعمل عملاً احترافياً في وظيفة لدى الدولة المُملة
والكثيبة، حتى لو استطاع التصالح مع تعطشها الغبي إلى
الدم وكذبها الخالي من الحياء.

كان يُرضي مخيلته الفنية على مناصب الرسم البيض
كالثلج، وبناء الجيل الثالث من هياكل الورق والرقائق
التي شغل بها ابنته في زمن ما. لقد تكشفت فيه بالمصادفة
صفة خاصة تجلَّت في رؤيته للتفرعات وفي إحساسه
الدقيق بالصلة بين الفراغ والمستوي، فلم يكن بالإمكان

حرف النظر عن الأشكال العجيبة التي كان يقصها من الورقة الكاملة، ويجمع منها جسمًا لا اسم له وليس له وجود في الطبيعة قبل الآن، بعد أن «يكرمشه» قليلًا في مكان ما ويطويه في مكان آخر قالبًا إياه على ظهره. صار اللعب، الذي ابتدعه في وقت من الأوقات من أجل ابنته، لعبه الخاص.

لم تعرف ثقة «صونيا» الأنثوية أي حدود، وقد آمنت بموهبة زوجها، فكانت تتفحص كل ما يخرج من بين يديه بإعجاب يصل حد الإجلال. لم تفهم لا المشكلات الفراغية المعقدة ولا الحلول الذكية لها، لكنها شعرت في دُماها الغريبة بانعكاس لشخصيته وبحركة لقوى غامضة، فكانت تُردد في قرارة نفسها بفرح لازمتها المعهودة: «يا إلهي، يا إلهي، لِمَ كل هذه السعادة...».

يمكن القول إن «روبرت فيكتوروفيتش» قد أهمل الرسم، فبسبب تسلياته السابقة مع «تانيتشكا» ظهرت لديه حرفة جديدة، وكما يحدث دائمًا فقد وقفت المصادفة إلى جانبه: التقى في قطار كهربائي في «ألكسندروف» بالفنان المعروف «تيملر»، الذي عرفه في باريس وحافظ على علاقته به بعد العودة إلى موسكو إلى أن دخل المعتقل. كان هذا الفنان الذي اشتهر بأنه من «الشكلانيين» - مَنْ ذا

الذي سيفسر، ومتى، ما الذي يعنيه انعدام الموهبة المُتفشي والمُشرعن تحت راية هذا اللقب - مختبئاً في تلك السنوات في المسرح. وحين جاء «روبرت فيكتوروفيتش»، وقف ساعة ونصف الساعة في السقيفة الخشبية أمام عدد من التركيبات الموقعة بصفوف من الأرقام العربية والأحرف العبرية، وقد شعر ابن نجار القرية هذا، والذي درس عامين في المدرسة اليهودية، بالخجل، وهو يقيّم نوعية هذه الصفوف الغريبة الاستثنائية، من أن يسأل مبدعها عن معناها. أما «روبرت فيكتوروفيتش» فلم يخطر في باله أن يسترسل في شرح هذه الصلة التي لا تقبل لديه الشك بين أبجدية «الكابالا»(*) والبقية المُتبسّسة من ولعه في صباه باليهوديات، وبين أعباء الجريئة التي تجزئ المكان وتقلب ظهره على باطنه.

احتسى «تيملر» الشاي طويلاً بصمت، ثم قال عابساً قبل المغادرة:

- المكان هنا رطب جداً يا «روبرت»، تستطيع أن تنقل أعمالك إلى مرسمي.

(*) تعاليم صوفية قروسطية في اليهودية تدعو إلى البحث عن أساس الأشياء كلها في الأرقام وحروف الأبجدية العبرية. (المترجم).

عنى هذا الاقتراح اعترافًا تامًا، وكان اقتراحًا نبيلًا للغاية، لكن «روبرت فيكتوروفيتش» لم يستثمره. فعادت هذه الأشياء التي لا اسم لها، والتي استدعيت إلى الوجود بالمصادفة، إلى اللاوجود، وأصابها العفن في إحدى السقائف اللاحقة، وفشلت في الصمود في وجه الانتقالات الكثيرة.

هنا، في هذه السقيفة، قدّم «تيملر» الشهير لـ«روبرت فيكتوروفيتش» أول طلبية صنع أنموذج ديكور مسرحي. وبعد مرور بعض الوقت صارت أنموذجاته مشهورة في مسارح موسكو كلها، ولم تنقطع الطلبيات بعد ذلك. كان يبني على سدة بارتفاع نصف متر مأوى «غوركي» الليلي تارة، ومكتب الراحل الذي بقي بلا وريث تارة، ويرفع تارة أخرى مخازن الحبوب التي خلدها «أوستروفسكي».

كانت «تانيا» ذات الأطوار الغريبة تسير بين السقائف الخشبية وأقفاص الحمام والأراجيح المُرَقَزَة. أَحَبَّت ارتداء فساتين أمها القديمة، وكانت هذه الصَّبِيَّة الطويلة والنحيلة تغوص في أرواب «صونيتشكا» المحزومة عند الخصر بشال كشميري باهت. تماسك شعرها الأجدد والعنيد، الذي لا يخترقه مشط ولا يُجدل في ضفائر، حول وجهها الضيق، مثل بذرة هندباء برية نضجت لكنها لم تسقط بعد. كانت تنطلق في الهواء الكثيف، المُحمَّل بروائح البراميل القديمة، وأثاث الحديقة المُتفكك، والظلال الكثيفة المحيطة بالأشياء البالية وغير النافعة، وفجأة، تختفي بينها مثل الحرباء. تتسمر طويلاً وتتفض حين ينادونها. أصاب القلق «صونيتشكا» واشتكت لزوجها عصبية ابتها وشرودها الغريب، فوضع يده على كتفها وقال:

- دعيها، فأنت لا تُريدين أن تُصيبيها التجاعيد...

حاولت «صونيتشكا» ترغيب «تانيا» في الكتب، لكنها كانت تُسمر عينيها وهي تستمع إلى قراءة أمها المُعبّرة وتسرح إلى حيث لا يخطر لـ«صونيا» حتى في المنام.

تحولت «صونيا» نفسها خلال سني زواجها من آنسة مرموقة إلى ربة منزل عملية. رغبت بشدة في منزل إنساني طبيعي فيه صنوبر مياه في المطبخ وغرفة مستقلة لابنتها ومحترف لزوجها وكستليتة وخشافات وشراشف بيض منشأة وغير مخاطة من ثلاث قطع مختلفة. كُرمى لهذا الهدف العظيم مارست «صونيا» عمليتين، فكانت تقضي الليالي على آلة الخياطة، وتوفر النقود سرًا عن زوجها. بالإضافة إلى ذلك، كانت تحلم بأن تضم إليهم أباهما المُترمل الذي فقد بصره تقريبًا وصار ضعيفًا جدًا.

تقدمت بها السنون بسرعة وعلى نحو غير جميل وهي تتلاطم في حافلات الضواحي وقطاراتها الكهربائية المتداعية، فتحول الزغب الناعم فوق الشفة العلوية إلى أجمة وسخة، وزحفت الجفون إلى الأسفل مُضيفةً على الوجه ملمحًا أشبه بملامح الكلاب، أما ظلال التعب تحت العينين فما عادت تزول لا بعد عطلة الأحد ولا بعد إجازة الأسبوعين.

لكن مرارة التقدم في السن لم تُسمِّ حياة «صونيتشكا» على الإطلاق كما يحدث للحسنات المُتباهيات بأنفسهن، إذ ترك لديها تقدُّم زوجها الكبير عليها في السن إحساسًا لا يفارقها بشبابها الذي لا ينقضي، وقد رسَّخ هذا الإحساس اندفاع «روبرت» الزوجي الذي لا ينضب. فكان كل صباح مُلونًا بلون السعادة الأنثوية التي لا تستحقها، وساطعًا إلى حد أنه لم يكن بالإمكان الاعتياد عليه. أما في أعماق روحها فقد عاش استعداد سري لفقدان هذه السعادة في أي لحظة - وكأنها طارئة وانهالت عليها لخطأ ما أو بغفلة من الغفلات. بدت لها ابنتها العزيزة «تانيا» هبةً بالمصادفة أيضًا، وهذا ما أكده الطبيب النسائي في ساعة ولادتها: الرَّحم لدى «صونيتشكا» كان يُسمى طفوليًّا، غير مكتمل النمو وغير قادر على إنجاب الأطفال، ولم تحمل «صونيا» بعد «تانيا» قَطُّ، وهذا ما أصابها بالقنوط، حتى إنها بكت. خُيِّلَ إليها أنها لا تستحق محبة زوجها ما دامت لا تستطيع أن تُنجب له أطفالًا جدًّا.

في بداية الخمسينيات استطاعت الأسرة، بجهود «صونيا» الهائلة، وبعرق جبينها، أن تقتني مسكنًا، بشراء نصفه ومبادلة نصفه الآخر، وانتقلت إلى ريع كامل من منزل خشبي ثنائي الطبقات، كان أحد الأبنية القليلة المتبقية في حديقة «بيتروفسكي» المتلاشية تقريبًا، بالقرب من محطة الميترو «دينامو». بدا المنزل رائعًا - إذ كان منزلًا ريفيًا سابقًا لمحام مشهور قبل الثورة. ريع البستان الملاصق للمنزل كان مُلحقًا بالشقة أيضًا.

تحقق كل شيء، فبات لدى «تانيا» غرفة مستقلة، وهي الحجرة المشمسة في الطبقة الثانية، أما والد «صونيا»، الذي كان يعيش آخر سنوات عمره، فقد شغل غرفة في الركن، وأقام «روبرت فيكتوروفيتش» على الشرفة المُزجَّجة مرسمه، كما صارت الحال أرحب أيضًا في ما يخص النقود.

بفعل المصادفة الناجمة عن عملية تبادل الشقق هذه، وجد «روبرت فيكتوروفيتش» نفسه بالقرب من «مونمارتر» الموسكوبي، وعلى بُعد عشر دقائق سيرًا على الأقدام عن مدينة فنانيين كاملة. فعلى نحو لم يتوقعه على الإطلاق، وجد في ذلك المكان الذي عده مُقفرًا ومهجورًا مُجالسين بالحد الأدنى، إن لم نقل مُشاطرين بالفكر: «ألكسندر إيفانوفيتش ك.»، روسي من أتباع مدرسة «باريزون»، حامي القطط المُتشردة والطيور المُصابة، والذي يرسم لوحاته الجامحة وهو جالس على التراب الرطب، مؤكدًا على أن تماس مؤخرته «الآنتايوسي» (*) هذا يكسبه القوة الإبداعية؛ والبوذي الأوكراني الأصلع «غريغوري ل.» الذي وضع على الورقة قطعة من الخزف الصيني الشفاف وحريًا، مُغطيًا طبقات الألوان المائية؛ عشرات المرّات بالشاي تارة وبالحليب تارة أخرى؛ والشاعر ذو الشعر الأرقش والأنف المكسور «غافريلين» المُتمتع بموهبة الرسم منذ الولادة، والذي كان يخط أشعارًا متناظرة وطلاسم كلامية وخطية أذهلت «روبرت فيكتوروفيتش»، على قصاصات مُقتطعة على نحو غير

(*) «آنتايوس» هو ابن «بوسيدون»، والعلاق الذي كان إذا ما نال منه التعب في صراعه مع الأعداء يلامس الأرض فيسترد قوته. (المترجم).

متساوٍ من ورقة محنية الحواف وموزعة بين الأشخاص الذين يبتكرهم.

انجذب غريبو الأطوار هؤلاء جميعهم، بعد أن كشفوا عن أنفسهم في بداية «ذوبان الثلج» المُخادع، إلى «روبرت فيكتوروفيتش»، وتحوّل تدريجيًا بيته المُنغلق إلى نادٍ من نوع خاص كان صاحبه نفسه يؤدي فيه دور الرئيس الفخري.

كان، كما هي حاله دائمًا، قليل الكلام، لكن ملحوظة ارتياب وحيدة تبدر منه أو ابتسامة واحدة كانت كافية كي تُصحح مسار النقاش التائه أو تنقل الحديث إلى وجهة جديدة. البلاد الصامتة صمتًا ثقيلًا أعوامًا كثيرة بدأت تتكلم، لكن الحديث الحُر كان يجري خلف الأبواب المُغلقة لأن الخوف ما زال وراء الظهور.

كانت «صونيتشكا» ترتق جوربًا من جوارب «تانيا»، بعد أن شدته على فطر خشبي أملس، وهي تستمع إلى حديث الرجال. ما تحدثوا حوله - عصافير الدوري الشتوية، ورؤى المعلم «إكهارت»، وطرق تحضير الشاي، ونظرية اللون عند «غوته» - لم يكن يتناسب بأي حال من الأحوال مع الهموم الجاثمة في فناء الزمن، لكن

«صونيتشكا» كانت تتدفأً ببغبطة قُرب نار هذا الحديث
العالمي، وتُردد في قرارة نفسها، طوال الوقت: «يا إلهي،
يا إلهي، لِمَ تمنحني هذا كله...».

كانت لدى «غافريلين» ذي الأنف المسطح، ومحِب
الفنون كلها، عادة التنقيب في المجلات. عشر مرّة في
المكتبة على مجلة فنية أمريكية فيها مقال طويل عن
«روبرت فيكتوروفيتش». انتهت النبذة الموجزة عن سيرة
حياة الفنان بنبأ مبالغ به قليلاً عن مماته في المعسكرات
الستالينية في نهاية الثلاثينيات. كُتِب القسم التحليلي
من المقال بلُغة صعبة جدًّا على الشاعر فلم يفهم كل
شيء، إلا أنه استنتج مما تسنَّى له ترجمته أن «روبرت
فيكتوروفيتش» يكاد يكون كلاسيكيًّا، وهو في الأحوال
جميعها طليعي من طلائع اتجاه فني مُزدهر بكامل طاقته
الآن في أوروبا، وقد ألحقت بالمقال أربع منسوخات
مُلوّنة من أعماله.

ذهب «روبرت فيكتوروفيتش» في اليوم التالي مباشرة

برفقة صديقه «الباريزوني» إلى مكتبة موسكو، وعثر على المقال، فتملّكه غضب لا يُوصف لأن إحدى منسوخات اللوحات الأربع لم تكن له بها أي علاقة بل كانت لـ«موراندي»، وكانت لوحة أخرى مطبوعة بالمقلوب. وحين قرأ المقال أحس بغضب أشد، ونخر قائلاً:

- أمريكا تركت لديّ منذ العشرينيات انطباعاً بأنها بلاد الحمقى الظلاميين، ويبدو أنها لم تزد ذكاءً.

بيد أن «غافريلين» راح يقرع الأجراس في كل مكان عن هذا المقال، فحتى المُصمّمين المسرحيين الحاذقين والمُندفعين تذكروا فجأة ذلك الفنان المُسن، صانع أنموذجات الديكور المسرحي، وهرعوا إليه لتجديد معرفتهم به.

النتيجة غير المتوقّعة لهذا الركض الحثيث كانت قبول «روبرت فيكتوروفيتش» في اتحاد الفنانين وحصوله على مَرَسَم. كان هذا المَرَسَم محترفاً جيداً، تطل نوافذه على ملعب «دينامو»، ولا يقل بأي شيء عن محترفه الباريسي الأخير، في شارع «جاي-لوساك» والمُطل على حديقة «لوكسمبورج».

كانت «صونيتشكا» قد بلغت الأربعين من عمرها، وشاب شعرها وازداد وزنها كثيرًا. أما «روبرت فيكتوروفيتش»، الخفيف والجاف مثل خشب السنط، فلم يتغير كثيرًا، وبدأ تدريجيًا يتساويان في السن بطريقة ما. شعرت «تانيا» بالخجل قليلًا من تقدم والديها في السن، مثلما شعرت به من طول قامتها وكبر قدميها ونهديها. كل شيء لديها من القياس الكبير، ولا يتناسب مع مقاييس ذلك العقد حين لم يكن سريعو النمو قد ولدوا بكثرة بعد. لكن لم يكن بالقرب منها - على العكس من «صونيا» - شقيق أكبر يسخر منها، و عوضًا عنه راحت تنظر إليها، بنظرات طيبة الأثر، بورترية رائعة على الجدران من أعمار الطفولة كلها، وقد خفت هذه البورترية من استياء «تانيا» من نفسها. بدأت منذ الصف السابع تتلقى البراهين المُنقعة

على جاذبيتها من أقرانها في الصف غير النامين بما يكفي
ومن الصبيان الأكبر سنًا.

كانت رغبات «تانيا» كلها تلبى بسهولة منذ طفولتها
المبكرة، إذ كان والداها المُحَبَّانِ دؤوبين جدًّا في هذا
الجانب، وغالبًا ما كانا يسبقان تلك الرغبات، فظهرت
لديها الأسماك، والكلب، والبيانو، في اليوم نفسه تقريبًا
الذي ذكرتها فيه.

أُحِيطت منذ ولادتها بالألعاب الرائعة، وكان اللعب
المستقل الذي لا يتطلب مشاركة الآخرين هو المحتوى
الأساسي لحياتها، وحدث أنها بعد أن تخطت تسليات
طفولتها التي طال أمدها وقضت عامين حائرة في مرحلة
الانتقال المعروفة، وبعد أن أدركت مبكرًا أي لعبة تحديداً
يُفضلها الكبار، استسلمت لهذه اللعبة بإدراك واضح
لحقتها بالمتعة، ولحرية شخصيتها غير المقموعة.

لم تعرف «تانيا» أي شيء شبيه، ولو من بعيد، بحب
«صونيتشكا» المذل لـ«فيتيا ستاروستين». ومع أنها
لم تكن من الحسنات بالمقاييس العادية، ولا حتى
جميلة بالمعنى المُتعارَف عليه، إلا أنه كان لوجهها الطويل
ذي الأنف الدقيق المُدبب، والمحاط بالشعر الأجد
المُتمرد، ولعينها الزجاجيتين النيرتين، جاذبية نادرة. وقد

لفتت «تانيا» انتباه أقرانها أيضًا بأسلوب اللعب الدائم: بالكتاب، وبقلم الرصاص، وبقبعتها. كانت تقيم بين يديها دائمًا مسرحًا صغيرًا لا يلحظه سوى جارها الأقرب.

مرّة، وهي تلعب بأصابع صديقها «بوريسكا» وشفتيه، بعد أن أسرعت إليه لتتنقل عنه الواجب المنزلي في الرياضيات، اكتشفت شيئًا ليس لديها، وقد لفت انتباهها إلى أقصى حد. كان باب غرفة والدي «بوريسكا» في تلك الساعة من المساء مفتوحًا قليلًا، وبدأ أن هذا الشق الواسع المضيء مع الظلمن السمينين أمام التلفزيون يدخل بطريقة ما أيضًا في شروط اللعبة التي اتبعاها اتباعًا رائعًا، وهما يتبادلان ردودًا لا علاقة لها بما يحدث مُطلقًا. وكان هذا العرض قد بدأ بتبادل طفولي بريء لأسئلة مثل: «ألم تُجرب من قبل قطُّ؟»، «وأنت؟» - ثم تبعه اقتراح «تانيا»، التي لا تعرف الرفض في أي شيء: «تعال نُجرب!» - فانهى بولوج قصير - بالمعنيين المجازي والحرفي - إلى ذلك الشيء الجديد.

في اللحظة الحارقة تنامت من الغرفة المجاورة دعوة في غير وقتها إلى العشاء، فتم تأجيل التجارب اللاحقة إلى وقت أكثر ملاءمة.

تمت اللقاءات التالية في غياب الوالدين. وكان أكثر ما استهوى «تانيا» هو إدراكها الجديد لجسدها: تبين أن

لكل قسم من أقسامه - الأصابع والصدر والبطن والظهر - استجابته المختلفة لللمس، ويسمح باستخراج شتى الأحاسيس الممتعة من الذات، وقد قدمت لهما هذه الدراسة المتبادلة الكثير من المتعة.

أظهر الصبي الهزيل المُنمش، ذو الأسنان الكبيرة البارزة وزاويتي الشفتين الملتهبتين، موهبة غير عادية أيضًا، وراح المختبران الشابان يجهدان بإلهام طوال شهرين، من الثالثة عصرًا حتى السادسة والنصف، أي حتى قدوم والدي «بوريسكا»، ويتقنان الجانب الميكانيكي من الحب بكامله، من غير أن يشعرًا في أثناء ذلك ولو بقليل من الإحساس خارج إطار الصداقة والشراكة العملية.

نشبت بعد ذلك نزاع بينهما على ما يُسمى أرضية إنتاجية: فقد أخذت «تانيا» دفتر مادة الهندسة من «بوريسكا» وأضاعته. أخبرته بذلك بأسلوب يتميز بالخفة التامة، حتى إنها لم تعتذر. لم يشعر «بوريسكا»، وهو المُرتب إلى حد الحذقة، بالاستياء الشديد من واقعة فقدان الدفتر بقدر استيائه من عدم إدراك «تانيا» لقلة اللياقة في سلوكها. نعتته «تانيا» بالمُتبرِّم ونعتها بالحقيرة فتخاصما.

صار «بوريسكا» يدرس الرياضيات بمزيد من المثابرة في الوقت المتفرغ بين الثالثة والسادسة والنصف، مُحددًا

رسالته كلياً في مجال العلوم الدقيقة. أما «تانيا»، التي لم تهتم ولو قليلاً بترتيب حياتها، فراحت تُخرج موسيقى خشبية سيئة من المزمار في حجرتها المشمسة وتقرض أظافرها وتقرأ... يا لـ «صونيا» المسكينة، ويا لشبابها الوضاء الذي انقضى على ذرا الأدب العالمي العالية - ابتها الساذجة أدبياً لا تقرأ سوى الفانتازيا، والفانتازيا وحدها، الأجنبية منها والمحلية على حد سواء...

راحت الأصوات المتقلبة الصادرة عن مزمار «تانيا» تجذب في تلك الأثناء جيشاً من المُعجبين. بدا الهواء نفسه مُتقدماً من حولها، وكانت خصلات شعرها الأجدد المكهربة تنتصب وتُطلق الشرارات ما إن تلامسها الأيدي. أما «صونيتشكا» فكانت لا تكاد تفتح الباب حتى تُغلقه في إثر الشبان المرتدين كنزات نُقشت عليها صور الوعول المضلعة، وبلوزات وُسُتر الجنود الرمادية التي شكَّلت، في نهاية الخمسينيات، اللباس المدرسي ذا الطراز المُغرِق في القدم والذي ابتكره وزير تعليم مُسن في نوبة من الحنين الأبله.

الموسيقار البارز «فلاديمير أ.»، الذي بقي بصورة إشكالية في أوروبا حين كان يعد ذلك في هذه الجهة من الحدود سلوكاً سياسياً إجرامياً، سوف يصف في كتاب مذكراته،

الصادر في نهاية التسعينيات، والذي كشف فيه عن موهبة أدبية لا مثيل لها، الأمسيات الموسيقية في غرفة «تانيا»، والبيانو ذا الأوتار المشدودة والأنغام العجيبة، والذي كان يحتاج إلى الضبط كل يوم. يتذكّر برقة تلك الآلة الغريبة التي كشفت للموسيقي المبتدئ سر فرادة الأشياء. يتحدث عنها كما يمكن الحديث عن قرية عجوز ماتت منذ زمن، وكانت تُطعم المؤلف في طفولته فطائر محشوة بالكرز لا يمكن أن تُنسى...

بشهادة «فلاديمير أ.» فإنه تحديداً في غرفة «تانيا»، المُطلّة بنافذتها المزخرفة على البستان وعلى شجرة التفاح القديمة ذات الجذع المُتفرّع، قد شعر للمرة الأولى باضطراب التفاهم الإبداعي المتبادل حين كان يرافق عزف «تانيا» على المزمارة الضعيف، وأقدم بفرح على شيء من إنكار الذات الموسيقي كي يمنح للمزمارة المرتجف وضعاً أهم. كان «فلاديمير أ.»، الصبي الصغير في ذلك الوقت والمُكتنز والشبيه بالسناد، مُغرماً بـ«تانيا». وقد تركت في حياته ونفسه أثراً عميقاً، وكانت زوجته - الأولى الموسكوبية والثانية اللندنية - تنتمي إلى النوع الأنثوي نفسه بلا شك.

الجلس الموسيقي الثاني كان «أليوشا البيتري» (*) -
الذي عرفوه في موسكو بهذا اللقب. كان يجابه تمارين
«فلاديمير» الكلاسيكية بحرية الغيتار والتمكّن التام من
الأشياء كلها التي تُصدر أصواتًا، ابتداءً من الهارمونيكا
الشفوية حتى علبتين من علب الكونسروة. كان إضافة إلى
ذلك شاعرًا، وقد غنى بصوت أجش مرتفع أولى أغنيات
الثقافة السرية الجديدة.

كان ثمة صبيان آخرون، وبدوا مشاهدين أكثر منهم
مشاركين، لكنهم كانوا ضروريين أيضًا ما داموا يُشكّلون
جمهور المُعجبين الذي يحتاج إليه كلا المشهورين
المستقبلين.

(*) نسبة إلى مدينة «بيتر» وهي «سان بطرسبورغ». (المترجم).

كان «روبرت فيكتوروفيتش» في سنوات شبابه مركزاً لدوامات تيارات غير مرئية أيضاً، لكن هذه التيارات كانت ذات صفة فكرية مختلفة، وقد انساق الشبان معها أيضاً كما ينساقون الآن تلبيةً لنداء مزمار «تانيا». اللافت أن حلقة هؤلاء الصبية اليهود مبكري النضوج، المراهقين بالمفاهيم المعاصرة، لم تدرس، في السنوات الصعبة التي سبقت الحرب، الماركسية الرائجة في تلك الفترة، بل «سفر الزوهار»، «كتاب الضياء»، وهو الكتاب الأساسي لـ«الكابالا». كان هؤلاء الصبية القادمون من «بودول»، الضاحية اليهودية لـ«كييف»، يجتمعون في منزل «أفيغدور» الطحان، والد «روبرت فيكتوروفيتش»، وكان جدار هذا المنزل مُلاصقاً لجدار منزل «سفارتسمان» والد «ليف شستوف» الذي ستتوطد

علاقة «روبرت فيكتوروفيتش» به بعد عشرين عامًا في باريس.

لم يُقدَّر لأيٍّ من هؤلاء الصبيان، الذين كُتب لهم أن يعيشوا أعوام الحروب والثورات، أن يصير فيلسوفًا يهوديًا تقليديًا ولا واعظًا دينيًا. فقد تحولوا جميعهم إلى «إبيقوريين»، أي إلى «مفكرين أحرار». صار أحدهم منظرًا رائعا وممارسًا بدرجة أقل من التوفيق في الحركة السينمائية الوليدة، وصار الثاني موسيقياً مشهوراً، والثالث جراحاً بيدين مباركتين؛ وجميعهم كانوا قد رضعوا الحليب نفسه، واستمدوا الطاقة الشابة نفسها التي تراكمت تحت سقف «أفيغدور» الطحان.

ما جرى حول «تانيا»، كما خمن «روبرت فيكتوروفيتش»، هو نفسه ما كان شبابه مشحوناً به، لكن تحت راية هوى آخر، أنثوي، مكروه منه، وفي الظروف المختلفة أيضاً لجيل ضحل وممسوخ...

كان «روبرت فيكتوروفيتش» أول من لاحظ أن زوَّار «تانيا» المتأخرين يغادرون أحياناً في الصباح الباكر. حين خرج من القسم المُخصص للسكن في منزله في السادسة صباحاً، أسير عادته في الاستيقاظ باكراً التي رافقته طوال حياته، واتجه نحو محترفه في الشُرْفَة حيث

كان يُحب أن يقضي هذه الساعات الأولى التي يشعر بأنها الأنقى، شاهد آثارًا حديثة على الثلج الذي هطل للتوّ تقود من المدخل إلى السور الخشبي. ثم شاهدها مرّة أخرى بعد بضعة أيام، فسأل زوجته بحذر إن كانت شقيقتها قد قضت الليلة عندهم. دُهِشت «صونيتشكا»: كلا، لم تقضِ «آنيا» الليلة عندهم...

لم يُجرِ «روبرت فيكتوروفيتش» أي تحقيق، لأنه شاهد في الصباح التالي شابًا طويل القامة في سُترة بائسة يخرج عبر البستان. لم يفه لـ «صونيا» ولو بكلمة واحدة عن اكتشافه، أما هي فأحنت رأسها المُثقل على كتف زوجها ليلاً وراحت تشتكي:

- إنها لا تواظب على دروسها... لا تفعل شيئاً... يوبخونها في المدرسة... تتحدث مُدرّستها «رايسا سيميونوفنا» عنها بتلميحات دنيئة...

هدأها «روبرت فيكتوروفيتش»:

- دعيها وشأنها يا «صونيا»، دعيها وشأنها. هذا كله ميت ومُتَعَفَّن على نحو مُقرف... ثم دعيها تترك هذه المدرسة البائسة. مَنْ يحتاج إليها...

فزعت «صونيا»:

- ماذا دهاك؟! ماذا دهاك؟! التعليم ضروري!

قاطعها زوجها:

- هدّئي من روعك، ودعي الفتاة وشأنها. إن كانت لا تريد فلا لزوم لذلك. دعيتها تعزف على مزمارها ففي هذا منفعةٌ غير قليلة...

بدأت هجوماً خجلاً:

- لكن هؤلاء الصبيان يا «روبرت» يقلقونني جدًّا. أظن أن أحدهم جلس عندها الليل بطوله فلم تذهب بعد ذلك إلى المدرسة!

لم يُشاطر «روبرت فيكتوروفيتش» «صونيا» مشاهداته الصباحية وبقي صامتًا.

منذ أن أبعدت «تانيا» «بوريسكا» عنها بدأ لديها عرس كلاب حقيقي. احتشد الشبان الممتلئون بالمنشطات قربها بإلحاح وإصرار، وقد اختبرت مع عدد من المرشحين منهم تسليتها الجديدة، وكانت المقارنة تسير لصالح «بوريسكا» - بالمقاييس والمعايير كلها.

مع حلول الربيع بات واضحًا أنها لن تنجح إلى الصف التاسع، فقد كان الهَمُّ المدرسي لا يُطاق بتاتًا، لذلك نقل «روبرت فيكتوروفيتش» وثائق «تانيا» إلى مدرسة

مسائية من غير أن يقول كلمة واحدة لـ«صونيا»، وقد جر
هذا عواقب عميقة على الأسرة كلها وعليه هو نفسه في
المقام الأول.

أهواء القدر التي لا رادَّ لها، والتي حدَّدت مصير «صونيتشكا» في وقت ما كزوجة لـ «روبرت فيكتوروفيتش»، طالت «تانيا» أيضًا، وكانت مادة العشق المحموم عاملة النظافة في المدرسة وزميلتها في الصف في الوقت نفسه «ياسيا»، ذات الثمانية عشر عامًا، والبولونية الصغيرة ذات الوجه الأملس مثل بيضة طازجة. انعقدت الصداقة بينهما ببطء في المقعد قبل الأخير، وراحت «تانيا» الضخمة والمطوَّحة بيديها تنظر بوله إلى «ياسيا» الشفافة مثل قارورة دواء مغسولة، وتتألم حياءً. كانت «ياسيا» صموتة، ترد باقتضاب على أسئلة «تانيا» النادرة، وتبدو مُتحفظة ومتعالية. كانت ابنة شيوخين بولونيين هربا من الاحتلال الفاشي بمشيئة القدر إلى اتجاهين مختلفين: الأب إلى الغرب، والأم مع ابنتها الرضيعة إلى الشرق، إلى روسيا.

لم تتمكّن من الاندماج في هذه البلاد المليونية فأبعدت رافةً إلى كازاخستان حيث عاشت في بؤس ومرارة عشر سنوات ثم ماتت من غير أن تتخلى عن مبادئها السامية المجنونة.

وجدت «ياسيا» نفسها في مأوى للأطفال، وأظهرت تعلقًا لا مثيل له بالحياة، وتخطت ظروفًا بدت وكأنها قد هُيئت خصيصًا من أجل موت الروح والجسد ببطء، ثم تخلّصت من ذلك المكان بفضل حُسن استغلالها التام للظروف التي أُتيحت لها.

بدا حاجباها المرفوعان عاليًا فوق عينيها الرماديتين، وفمها الرقيق الشبيه بفم القطة، وكأنها تطلب الحماية، وقد وجدت الحماية فعلاً. كان من بين مَنْ حماها رجالٌ ونساءٌ، لكنها فضّلت الرجال لطبيعتها المستقلة، بعد أن تعلّمت منذ سن مبكرة تصفية الحساب معهم بأسلوب لا يُكلفها غالبًا.

أحد حماتها الأخيرين، الذي ظهر بعد تسجيلها في مدرسة مهنية مُرعبة خاصة بأطفال الملاجئ وبعد هروبها منها المُخطّط له، كان التتري السمين «رافيل» ذو الأربعين عامًا، المُرشد في القطارات، والذي أوصلها حتى محطة «قازان» للقطارات في موسكو، وهناك خطّطت لبداية

صعودها. كان لديها في الجيب الجانبي من حقيبة التسوق بطاقة شخصية صادرة باسمها قبل ذلك بوقت قصير سرقتها من مكتب المدير، وثلاثة وعشرون روبلاً من روبلات ما قبل الإصلاح سرقتها من «رافيل» النائم مع اقترابهم من «أورينبورج». هذه النقود المسروقة لم تحرق يديها لسببين: فقد أخذت القليل القليل من رزمة سميكة، وعدا ذلك فقد شعرت بأنها قد كسبت هذه النقود بجهدتها خلال الطريق الذي استغرق أربعة أيام.

لم يلحظ «رافيل» عملية السرقة التي تعرّض لها في الطريق، وقد اغتم كثيراً حين لم تحضر الفتاة بعد يوم إلى العربة السابعة لتعود معه إلى كازاخستان كما وعدته.

روت لـ «تانيا» وهي تبسم ابتسامة رقيقة ومُتساهلة مع ذاتها، المُتَّسمة حتى وقت قريب بالسذاجة والحماسة، كيف بللت منشفة رمادية من مناشف القطار في حوض المرحاض العام في محطة «قازان»، ثم خلعت ملابسها كلها أمام أعين الآسيويات المصعوقات اللواتي احتشدن في ذلك المكان التّن، وراحت تمسح بها جسدها من رأسها حتى أسفل قدميها، ثم كيف أخرجت من حقيبة التسوق نفسها بلوزة بيضاء ملفوفة في جريدتين ومُزينة بالكشكش عند الياقة خبأتها منذ زمن لمثل هذه الظروف،

ثم كيف بدلت ملابسها وانطلقت، بعد أن رمت المنشفة في السلة الشبكية الصدئة، لتفتح موسكو ابتداء من أفضل موقع صادفها، أي من الساحة الشهيرة المتاخمة لثلاث محطات قطار.

احتوت حقيبتها على زوجين من السراويل النسائية، وبلوزة زرقاء وسخة، ودفتر نسخت فيه أشعارًا بخط يدها، ورزمة من البطاقات البريدية لممثلين مشهورين. كانت صلبة، وفطنة، وساذجة فعلاً إلى حد لا يُصدّق: فقد كانت تحلم بأن تصير ممثلة سينمائية.

دَلَّ كل شيء على أن «ياسيا» ستصير مُومسًا محترفة، لكن ذلك لم يحدث.

استطاعت أن تُحقق نجاحات كبيرة خلال العامين اللذين قضتهما في موسكو؛ فقد كان لديها إقامة مؤقتة، وسكن مؤقت في عنبر تابع للمدرسة التي عملت فيها عاملة نظافة. هناك كان يزورها من وقت إلى آخر الشرطي «مالينين»، فاعل الخير المُسن وأحمر البشرة والذي حصلت من خلاله على هدايا القدر المؤقتة هذه كلها. كانت زيارات «مالينين» قصيرة، فلم تُشكّل عبئًا على «ياسيا»، كما أنها لم تكن جذابة جدًا حتى له نفسه؛ لكنه كان مُرتشيًا ومُبْتَزًا مُلهمًا، وبما أنه ما كان بالإمكان

الحصول من «ياسيا» على أي شيء فإنه كان مُضطرًّا إلى أخذ ما تُقدِّمه.

في هذا العنبر نفسه، وعلى البساط الرياضي الذي استُعِيض به عن السرير، روت «ياسيا» لـ«تانيا» قصتها. لامست هذه الأحداث شغاف قلب «تانيا» فأحست في أثناء ذلك بشعور مُعقَّد ومُرَكَّب من الشفقة، والحسد، والخجل من الرخاء الموحش الذي تعيش فيه. بعد أن روت «ياسيا» بتفصيل ودقة وجفاف كل ما تذكَّرتَه عن نفسها، رأت فجأة كل ما عاشته من منظور خارجي، وشعرت بأنها تكرهه بقدر من القوة وعلى نحو نهائي جعلها تمتنع بعد ذلك عن أن تروي لأي أحد وفي أي وقت هذه الحقيقة. ابتكرت لنفسها ماضيًا جديدًا، فيه جدَّة أرستقراطية، وأملاك في بولونيا، وأقارب فرنسيون سيظهرون في حياتها مثلما يظهر المارد من المصباح في الساعة المناسبة...

كان في المدرسة إضافة إلى عنبر «ياسيا» غرفة سكن أخرى شغلتها «تاييسيا سيرغييفنا»، مُعلِّمة اللغة والأدب الروسيين وأرملة أحد العسكريين. أثارَت زيارات «مالينين» استياءً شديدًا لديها، لكن هذا لم يمنعها من تكليف «ياسيا» برعاية أطفالها الصغار والقيام بشتى التنظيفات، وكان مسموحًا لـ«ياسيا» لقاء خدمات الجيرة هذه بأن تستخدم خزانة كتب

المُعلِّمة وبأن لا تحضر حصص الأدب. فضلت «تاسيا سيرغييفنا» أن تجلس «ياسيا» في هذا الوقت مع أولادها. كانت «ياسيا» تستلقي على البساط الفوّاح برائحة الجلد المُتعرق بعد أن تُنهي ساعات عملها، وتحفظ عن ظهر قلب خرافات «كريلوف» التي يستحيل من غيرها في الأزمنة كلها الانتساب إلى أي مدرسة للتمثيل، أو تقرأ بصوت مسموع «شكسبير» بدءًا من الجزء الأول حتى الأخير، ممثلةً بهمس مأساوي الأدوار النسائية كلها - من «ميراندا» ابنة «بروسبيرو» حتى «مارينا» ابنة «بيريكليس».

معلمو المدرسة المسائية لم يكونوا يثقلون كثيرًا على التلاميذ المسائين بالدروس بعد أن ينهكوا منذ ما قبل الغداء من تعليم إخوتهم التلاميذ النهاريين الصغار، أضف إلى ذلك أن نصف الصف كان مُكوّنًا من المقيمين في سكن الشرطة المشترك غير البعيد، وكان الشبان المتعبون يغفون بسلام في الصف شبه المظلم وينالون علامة النجاح ثم يتابعون الدراسة، فمنهم مَنْ يصير محاميًا، ومنهم مَنْ يسير عبر المسار الحزبي... كانت «ياسيا» الوحيدة في الصف كله التي أتى المقعد على مقاسها، بينما كان الآخرون ينحشرون في هذه الصناديق الخشبية المبتكرة خصيصًا من أجل تعذيب صغار السّن...

تحركت «تانيا» العنيفة والمطوحة بيديها مصدرة الضجيج وبحرية غير مُهذبة كحرية المهر، وحين تجلس في المقعد كانت تزحجه فيهتز معه قليلاً رأس «ياسيا» الخفيف. أما «ياسيا» فكانت تُغادر المقعد بلا ضجيج، رادة الغطاء ومحركة وركيها حركة لطيفة ومنزلة، ثم تسير في الممر الضيق إلى السبورة بحيث يتخلف القسم السفلي من جسدها عن قسمه العلوي قليلاً، وساقها المتأخرة في الخطوة تنسحب قليلاً وتتسمّر على رؤوس الأصابع، أما الرُكبتان فتتحركهما وكأنها تدفع القماش الثقيل لفيستان سهرة طويل، وليس لتنورة رثة. كان الانحناء في عمودها الفقري انحناءً خاصاً نوعاً ما، وكان كل قسم من جسدها يقوم بحركاته الخاصة، وهذه الحركات كلها - الإمالة الخفيفة للنهدين، واهتزاز الوركين، والأرجحة الخاصة للكاحلين - لم تكن أساليب غناج مُتقنة، بل موسيقى جسد أنثوي ينشد الاهتمام والإعجاب. كان الشُرطي «تشوريلين» غير الفتى وذو الأعوام الثلاثين والوجه الضخم بلباسه العسكري الأسود يهز رأسه في إثرها ويُتمتم:

- يا لك من فتاة... همممم...

لم يكن مفهومًا المراد من هذه التمتمة - أهو نفور

أم إعجاب. عمومًا، حافظت «ياسيا» على استقلاليتها، ما جعل الأمر لدى الشرطيين لا يتعدى متممة «تسوريلين».

عند العودة إلى المنزل كانت «تانيا» تحاول طوال الوقت أن تمشي هذه المشية في ظلمة الحديقة الليلية، وأن تعزف موسيقى «ياسيا» بركبتها ووركيها وكتفيها - فتمط رقبتها إلى الأعلى وتسحب ساقها إلى الخلف وتهز وركيها. حُيِّل إليها أن طولها الفارع يمنعها من أن تكون مُناسبة على نحو جذَّاب مثل «ياسيا»، فاحدودبت. كانت «تانيا» تُفكِّر: «ثمة شيء فيها من العفاريت»، ثم تندفع نحو المنزل بعد أن تتعب من تمريناتها على المشي الراقص، راميةً ساقها الطويلتين كيفما اتفق، ومطوَّحةً تارة بيدها اليمنى وتارة أخرى باليسرى، ورادةً رأسها، ومُلقيةً إلى الوراء بشعرها الذي جمع الضباب الليلي كله. أما «روبرت فيكتوروفيتش»، الذي غالبًا ما يخرج للقاءها في الحديقة في مثل هذه الساعة من المساء، فقد كان يعرفها من بعيد من مشيتها ومن طبعها المُتمثِّل في حركاتها غير المتناسقة، ويتسم لقوة ابنته التي تعلوه بطول نصف رأس ولخرقها.

كلاهما أحب هذه الحديقة المسائية وثمَّنَ التفاهم المتبادل الصامت والتأكيد السري على مؤامرتهما غير المُعلَّنة ضد «صونيتشكا». كان كلاهما - «روبرت فيكتوروفيتش»

بغطرسته الفطرية، و«تانيا» بفتوتها وموروئها - يتشاغل
بالقسم الأفضل والمُنتقى من العمل الذهني، تاركين
لـ«صونيتشكا» فتات الموائد والخبز.

لكن «صونيتشكا» لم يخطر في بالها أن تحزن لنصيبتها،
وأن تغار على ما هو أسمى: لقد غسلت الصحاف والقذور
جيداً، وحضرت الطعام بمثابرة وحماسة، مُتحققة من
الوصفات المنسوخة بالحبر الليلكي السائح عن كتاب
«يلينا مولوخوفيتس» الذي لدى شقيقتها، وعلت براميل
الغسيل ونشت الملابس وعالجتها بالنيلة، وكان «روبرت
فيكتوروفيتش» ينظر أحياناً باهتمام من وراء ظهرها
الكبير إلى النيلة والسميد والصابون المنزلي المملس
والفاصولياء، ويقر، بحدة اللحظ التي يتسم بها، بالفنية
المُقنعة لإبداع «صونيتشكا» المنزلي، وبمغزاه المُتسامي،
وبجماله. فيفكر على نحو عابر: «حكيم، حكيم عالم
النمل...»، وهو يغلق خلفه الباب المُفضي إلى شُرفته
الدافئة، حيث أوراقه الخشنة، وصبغ الرصاص الأبيض،
وغيرها القليل مما سمح به لنفسه في أثناء تمريناته
الصارمة.

لم يكن لـ«تانيا» أي شأن بحياة أمها المطبخية: فهي الآن
ملفوفة بدخان العشق. حين تستيقظ صباحاً تبقى مُستقلية

طويلاً بعينين مفتوحتين مُتخيلة نفسها «ياسيا»، ونفسها مع «ياسيا» في ظروف مختلفة جذابة، فتارة تتفاخران عبر مرج نضر على حصانين أبيضين، وتارة تمخران على يخت عباب البحر الأبيض المتوسط مثلاً.

انقلب عليها تعاملها الحر، وحتى الفظ، مع أدوات الطبيعة المقدسة بأن تاهت غرائزها بعض الشيء، وباتت روحها، إذ راحت تتقاسم المُتع الجسدية المرححة مع الصبيان الممشوقين، تتوق إلى العشرة السامية والتواصل والاندماج والتبادلية التي لا تعرف حدوداً أو شواطئ. وقد اختارت روحها «ياسيا» وسعت بكل عقلها إلى أن تُسوّغ هذا الاختيار وتكسبه تفسيراً عقلاً نياً.

- آه يا ماما، تبدو ضعيفة وخفيفة جداً لكنها قوية قوة غير عادية!

عبّرت «تانيا» بهذه الكلمات عن إعجابها وهي تُحدث أمها عن صديقتها الجديدة، وعن مأوى الأطفال النقاسي، وعن هروبها المُتكرر، وسقطاتها وانتصاراتها. كانت «ياسيا» قد أغفلت في أحاديثها لـ «تانيا» ذكر بعض الأمور بسبب حذرها المُتجدد في طبيعتها، فلم تذكر نفي أمها، وإتجارها الرخيص بجسدها الطفولي، وعاداتها المتأصلة سرقة الأشياء التافهة.

لكن ما رُوي كان كافياً لـ«صونيتشكا» كي تتعاطف مع
آلام الطفولة وتحزر ما بقي مخفياً عن «تانيا». فكرت
«صونيا» في قرارة نفسها: «مسكينة، يا للطفلة المسكينة.
كان يمكن لابتنا «تانيا» أن تكون كذلك، فكم من الأحداث
وقعت...».

ثم تذكّرت الأحداث الكثيرة كلها التي حماهم الله فيها من
الموت المبكر: تذكّرت كيف رموا «روبرت فيكتوروفيتش»
من عربة القطار الكهربائي في «ألكسندروف»، وكيف
سقطت العارضة في الغرفة التي كانت تعمل فيها والتي
غادرتها قبل دقيقة من ذلك فطُمر نصف الغرفة بالطوب
القديم القاتم، وكيف كادت تموت على سرير العمليات
بسبب الزائدة الدودية المُتقيحة... تنهّدت «صونيا»:
«يا للفتاة المسكينة!»، واكتسبت هذه الفتاة التي لا تعرفها
ملاح «تانيا»...

لم تستطع «تانيا» أن تُقنع «ياسيا» بزيارتهم قبل يوم رأس السنة. كانت «ياسيا» ترفع كتفيها وترفض طوال الوقت، من غير أن تُفسر لـ «تانيا» سبب رفضها العنيد هذا.

أما السبب فتلخص في أن هاجسًا كدرًا وقويًا قد تملكها منذ زمن تجاه هذا المكان الجديد والواعد بالكثير، فراحت كالقائد قبل المعركة تتحضر سرًا ومليًا لهذه الزيارة، عاقدةً عليها آمالًا غير محدودة.

اشترت في محل الأقمشة عند باب «نيكيتسكي» قطعة من التفتة باردة باللمس ومُلهبة للنظر، وذات لون مسفوع، وفي وقت متأخر من الأماسي راحت تخطط بيديها وبقطب صغيرة فستانًا أنيقًا - وحيدةً في الصمت السائد، وبابتهاج وتركيز كتركيز المرأة الحامل الخائفة قليلًا من أن تُصيب

بالنحس ظهور المولود الجديد إلى الدنيا بخياطة الملابس له قبل الأوان.

وصلت عند الساعة الثانية عشرة من اليوم الواحد والثلاثين من ديسمبر إلى مائدة مفروشة جلس خلفها «الباربيزوني» والشاعر، بالإضافة إلى مخرج ذي أنف كمنقار الطيور وفم كفم الضفدع. لم تكن قد تمعنت جيدًا بعد في وجوههم المُعبِّرة لكنها شعرت في داخلها بالحبور، مدركة أنها أصابت الهدف المنشود، فهؤلاء الرجال الكبار والمستقلون هم تحديدًا من تحتاج إليهم كي تنطلق، وكي تُحلِّق، وكي تُحقق النصر التام والنهائي. رمت نظرة شكر رقيقة باتجاه «تانيا» التي استقبلتها بفرح وببريق وردي من وجنتيها المُزيتتين. لم تكن «تانيا» حتى اللحظة الأخيرة مُوقنة من أن «ياسيا» ستأتي، أما الآن فهي تشعر بالفخر لجمال «ياسيا» وكأنها هي من ابتكرته ورسمته.

حفَّ فستان «ياسيا» حفيفًا حريريًا عاليًا، أما شعرها الأصهب الثقيل فكان مُناسبًا كقطعة واحدة وكأنه مصبوب من قطران فاتح اللون، واستلقى على كتفيها مقصوص الحواف مثل شعر «مارينا فلادي» في فيلم «الساحرة» الذي كان رائجًا في ذلك العام. كانت فتحة

عنق الفستان عميقة، وقد شكّل نهذاها الشبيهان بنهود المعزاة والمضغوطان أحدهما إلى الآخر طريقًا ناعمًا إلى الأسفل، وكان خصرها نحيلًا ومشدودًا عن عمد على شكل قده، وكان الكاحلان دقيقين تحت بطتي الساق الممتلئتين، وبدا معصماها ضيقين على نحو مُلفت بسبب بعض الانتفاخ في الساعدين. لاحظ «روبرت فيكتوروفيتش» في قرارة نفسه على نحو عابر: ليست فظاظة غيتار بل روعة زجاجية لقده صغير.

كانت «صونيتشكا» خائبة الأمل بعض الشيء، فبعد أن تأثرت مُسبقًا بقصة حياة صديقة «تانيا» الصعبة، لم تكن مُستعدة لأن ترى، عوضًا عن «سندريلا» بائسة، هذا الجمال الأنيق والعينين المكحلتين بكامل جاذبية الحسن السلافي البهي.

أجابت «ياسيا» عن الأسئلة باقتضاب، مُبقيةً عينيها مُسبلةً إلى أن ترفع رموشها المثقلة بالحبر الهندي كي تقول بالنبرة الملكية المُسالمة التي كانت تنطق بها أمها الراحلة: «شكرًا، لا»، «أشكركم، نعم...». كان بإمكان الأذن المُرهفة أن تلتقط في أجوبتها القصيرة اللكنة البولونية - في حرفي «ف» و«ل» المدغمين.

راحت «صونيتشكا» تسكب الطعام في صحن «ياسيا»

بمودة، فتنهّدت هذه الأخيرة وتمنعت، لكنها أكلت على الرغم من كل ذلك فخذ بطة وقطعة من «جيليه» السمك المبرد وسلطة السلطعون.

قالت «ياسيا» بلطف وبصوت شاكٍ تقريباً:
- ما عدت قادرة، أشكرك.

لم تستطع «صونيتشكا» مع ذلك أن تنزع من قلبها الشعور بالتعاطف: «يتيمة، طفلة مسكينة، ملجأ الأطفال... يا إلهي، كيف يمكن لهذا أن يحدث»...

كان «ألكسندر إيفانوفيتش الباريزوني» قد بدأ يُغني بصوت شماس قاتم أغاني أوبرالية باللغة الإيطالية، أما «غافريلين» الثمل فراح يُمثل على نحو مُضحك إلى حد الجنون كيف يبحث الكلب عن البرغوث. دوّر عينيه وشرع يزمجر تارة بغضب وتارة أخرى بحبور، ثم دس رأسه تحت إبطه مُضحكاً الجميع حتى انقلبوا على ظهورهم. اكتفى «روبرت فيكتوروفيتش» بالابتسام مُطلقاً البريق من معدنٍ مزدوج - معدن عينيه ومعدن أسنانه المُركبة حديثاً.

عند الساعة الثالثة وصل «أليوشا البيتري»، المُعجب الغيور بـ«تانيا»، وصاحب مجدٍ مستقبلي كان قد بدأ يقيسه على نفسه، وكان معه كيس من العشب الرمادية - فقد كان من

أوائل المُحبين للكيف الآسيوي على ضفة نهر «النيفا». نزع «أليوشا» بلا أي حرج غطاء الغيتار، وأدى بضع أغنيات حزينة ولاذعة وأخرى مضحكة وهو يتلوى بحماسة ويمط فمه الشبيه بفم الممثل الهزلي.

كان «أليوشا» مُغرماً بـ«تانيا»، و«تانيتشكا» مُغرمة بـ«ياسيا»، أما «ياسيا» فقد أُغرمت، في أمسية رأس السنة تلك، بمنزل «تانيا». قُبيل الصباح، حين تفرق الضيوف وشاركت الفتاتان في إزالة الأطباق عن المائدة، أبقى «صونيا» «ياسيا» لتنام في الغرفة المتطرفة الفارغة، التي اكتشف «روبرت فيكتوروفيتش» وجودها فيها نهاراً حين دخلها باحثاً عن لفافة الورق الرمادي.

عمَّ الهدوء في المنزل، إذ أنهت «صونيا» تنظيف المكان بعد مغادرة الضيوف وذهبت لزيارة شقيقتها، وكانت «تانيا» نائمة في حجرتها. أما «ياسيا» ففتحت عينيها بعد أن أيقظها صرير الباب، وظلت تُراقب طويلاً كيف راح «روبرت فيكتوروفيتش» يبحث وراء الخزانة ويلعن الشيطان بصوت خافت. نظرت إلى ظهره وحاولت طوال الوقت أن تتذكر أيّ ممثل أمريكي تحديداً يشبهه. لقد رأت مثل هذا الوجه ومثل هذا الجوخ الرمادي في المجلة البولونية «بشيغلاند أرتيستيتشين» التي درستها

من الغلاف إلى الغلاف. لم تستطع على الإطلاق أن تتذكر اسم المُمثل، لكن خُيل إليها أنه حتى قميص ذلك الأمريكي كان نفسه بتربيعاته الكبيرة والنادرة.

جلست في السرير. التفت «روبرت فيكتوروفيتش» على صوت الصرير. برز من قميص نوم «صونيا» الهائل رأس صغير أشقر على رقبة قصيرة. تلمظت الفتاة الصغيرة وابتسمت، ثم سحبت القميص من كميته وانسلت بسهولة عبر فتحة العنق. رمت بحركة من ساقها اللحاف على الأرض، ووقفت بطولها الكامل لينزلق القميص الضخم إلى أسفل. ركضت بقدميها الطفليتين القصيرتين على الأرض الباردة المطلية نحو «روبرت فيكتوروفيتش» فانتزعت من يده اللقافة التي عثر عليها، ووضعت نفسها بين يديه وكأنها تستبدل باللقافة نفسها.

- مرة واحدة وبسرعة.

قالت هذه الساحرة العملية ذلك بلا أي دلال، كما تتحدث عادة مع شُرطيتها المُحسن إليها «مالينين». لكنها هناك كانت تعرف لماذا تفعل ذلك، أما هنا فليس ثمة طمع ولا حسبة. حتى إنها نفسها لم تكن تعرف الدافع، إنه العرفان تجاه المنزل... إنه أيضًا يُشبه كثيرًا ذلك الممثل الأمريكي المشهور. ألا يكون «بيتر أوتول»...

لم تعرف ببساطة رجلاً يستطيع رفض هبتها أو إشارة انتباه منها أو شكر، فمدت نحوه وجهها الصغير المُبتهج الذي بدا وكأنه منحوت على مخرطة من أشد الأخشاب بياضاً ودفناً.

ارتد قليلاً نحو الخزانة وقال لها بصرامة:

- اندسي تحت اللحاف سريعاً وإلا فسيُصيبك البرد!

ثم خرج من الغرفة ناسياً لفافة الورق. لم يرَ من قبل قطُّ جسداً يمثل هذا السطوع القمري، وبمثل هذا السطوع المعدني.

غطت «ياسيا» نفسها باللحاف الذي لم يكن قد برد بعد، وغفت مرة أخرى بعد دقيقة. نامت مُستمتعة ومن غير أن تفارقها في الحلم حلاوة هذا النوم المنزلي في البيت الأنيس، وقد استلقى قميص نوم «صونيتشكا»، الذي لم تلبسه بعد ذلك، تحت وجنتها وفاحت منه رائحة الجنة.

أما «روبرت فيكتوروفيتش» الملدوغ فسار في الغرفة المجاورة وانكمش ودور رأسه. أطل من النافذة الغسق المبكر لهذا العام الذي بدأ للتو، و«صونيا» لم تأت بعد، و«تانيا» لم تهبط بعد على السلم الصرار. شق بحذر باب الغرفة المُتطرفة واقترب بهدوء من السرير. كانت الفتاة

مغطاة حتى رأسها تقريبًا، وبقي مُنكشفاً قذالها الأصهب
وحده. دس راحتيه الجافتين تحت تلعة اللحاف الدافئ،
فلم يقطع اقتحام يديه لنوم «ياسيا» هذا النوم ولم يفسده.
التفتت «ياسيا» للقاء هاتين اليدين ولتبدأ لدى «روبرت
فيكتوروفيتش» حياة أخرى، أخيرة.

زمهرير رأس السنة الصادق اشتد مع حلول المساء. بدأت بقايا طعام العام السابق المكشوفة تجف على المنضدة. لم يأكل منها «روبرت فيكتوروفيتش»، فالطعام البائت يُثير نفوره، وراح يفكر بأجداده الحكماء الذين كانوا يحرقون بقايا طعام الفصح فلا يسمحون بمثل هذا الاحتقار له...

راحت «صونيتشكا» تحرك بلا معنى بالملعقة الشاي الذي لم يكن فيه سكر وهمّت طوال الوقت بأن تقول لزوجها أمرًا مهمًا، لكنها لم تجد الكلمات المناسبة لذلك.

التقط «روبرت فيكتوروفيتش» بوجهه الساهم الأصدقاء الخافتة لهدير الفرحة في لب عظامه الشائخة، وحاول أن يتذكر متى شعر بمثل هذا... من أين هذا الإحساس الغريب بحضور الذكريات... ربما حدث له في طفولته ما يُشبه هذا حين خرج إلى الرمل الهش والساخن بعد

أن شبع شقلبةً في ماء «الدينير» الثقيل، وطمر نفسه به، وراح يتدفأ في هذا الحمّام الرملي حتى أحس بالاستجابة الحلوة في عظامه... وثمة أيضًا ما يشبه نورًا حادًا أضواء الطفولة حين خرج ليلاً «رويم» الصغير، ابن «أفيغدور»، والذي تحوّل مع السنين إلى «روبرت فيكتوروفيتش»، ليقضي حاجة في العراء، ولما رد رأسه إلى الخلف رأى أن نجوم الكون كلها تنظر إليه من الأعلى بعيون حية وفضولية، وأن جلجلة خافتة تُغطي السماء بمعطف ذي طيات، وأنه - وهو الطفل الصغير - يمسك بخيوط الكون وفي طرف كل خيط جرس صغير يرن رنينًا خافتًا ونفاذًا، وأنه لب هذا الصندوق الموسيقي الهائل كله، وأن الكون كله يستجيب صاغرًا لدقات قلبه ولكل شهقة يشهقها ولجريان دمه ولتدفق بوله الدافئ... أنزل قميص النوم المرفوع، ورفع يديه ببطء إلى أعلى وكأنه يوجه هذه الأوركسترا السماوية... فاخترقته هذه الموسيقى وعبرت لب عظامه بموجة حلوة...

لقد نسي، نسي هذه الموسيقى، ووحدها ذكراها بقيت أعوامًا طويلة من غير أن تُمحي...

قالت «صونيتشكا» بصوت خافت بعد أن أوقفت تدوير الملعقة في الكأس:

- «روبرت»، فلتسكن الفتاة معنا في المنزل. الغرفة المتطرفة فارغة.

نظر «روبرت فيكتوروفيتش» إلى زوجته بدهشة، وقال كلامه المعتاد الذي يقوله دائماً حين يدور الحديث عن أمور لا تمسه كثيراً:

- إذا كنتِ ترين يا «صونيا» أن هذا ضروري فافعلي ما تريه ضرورياً.

وذهب إلى غرفته.

انتقلت «ياسيا» إلى منزل «صونيتشكا». وكان وجودها الصامت والمليح مُمتعًا لهذه الأخيرة، ويدغدغ إحساسها الخفي بالاعتزاز - فإيواء اليتيم كان من «الميتسفا»، من أفعال خير. لقد باتت «صونيا»، مع مرور السنين، تشعر أوضح فأوضح بالبعد اليهودي فيها، وانعكس ذلك فرحًا وإحساسًا ممتعًا بتنفيذ الواجب في آن معًا.

استيقظت فيها ذكرى يوم السبت، وشعرت بالانجذاب إلى حياة الأجداد الطقسية المنظمة بأساسها الصارم، وإلى المنضدة المتينة ذات القوائم الثقيلة والمغطاة بمفرش احتفالي صلد، والشموع، والخبز المنزلي وذلك السر الأسري الذي يتبع عشية يوم السبت في كل منزل يهودي. وإذا بدت مُنسلخة عن هذه الحياة القديمة فقد أودعت حماسها الدينية المبهمة كلها في مشاغل المطبخ مع

اللحم والبصل والجزر والمناديل البيض القاسية وترتيب
المائدة على أكمل وجه، حيث وعاء التوابل ومساند
السكاكين والصحون مصفوفة بإتقان إلى اليمين أو إلى
اليسار كما يقضي قانون آخر مختلف تمامًا وجديد نسبيًا،
وبرجوازي. غير أن «صونيا» لم تفكر بذلك.

صارت في السنوات الأخيرة، سنوات البجوحة النسبية،
تشعر فجأة بأن الأسرة صغيرة عليها، وكانت تتحسر سرًا
لأنه لم يُقدَّر لها أن تلد الكثيرين من الأطفال كما كان مُتبعًا
في قبيلتها. راحت تشتري كل شيء، فاشترت الكثير من
أوعية الصلصة الحديدية المختلفة والصحون الخزفية
الإنجليزية بأسعار خيالية جدًا من محل السمسة في
«نيجنايا ماسلوفكا» وكأنها تتحضر لكثرة الأطفال مستقبلًا
لدى ابنتها «تانيا».

تألف دين «صونيا»، مثل الكتاب المقدس، من ثلاثة أقسام.
لكن عوضًا عن «التوراة»، و«الأنبياء»، و«الكتابات»، كانت
الأقسام لديها هي المقبلات، والطبق الرئيسي، والتحلية
من كل وجبة.

حضور «ياسيا» خلف المائدة أوهم «صونيا» بازدياد
حجم الأسرة، وزين منضدة الطعام. كانت طبيعية خلف
المنضدة، ومليحة، وتبدو وكأنها تأكل قليلًا لكن بشهية

لا تنقطع، وإلى أن يصيبها التعب المضحك لأن ذكرى
الجوع الطفولي الدائم لم تكن لتستنفد فيها، فتتنبصوت
خافت وهي ترتد نحو ظهر الكرسي:

- أوه يا عمّة «صونيا»! كم كان لذيذاً.. ها أنا أتخم مرّة
أخرى...

وكانت «صونيا» تبتسم بحبور وتضع على المنضدة
سلطانيات زجاجية صغيرة مملوءة بالخشاف.

مضى شهران، وبفضل مقدرة «ياسيا» على التأقلم كالقطط، وبفضل كياستها المولودة معها، فإنها لم تشغل الغرفة المتطرفة وحسب بل اكتسبت إضافة إلى ذلك وضع شبه القريبة في الأسرة.

كانت تهرع في الصباح الباكر لتشطف دهاليز المدرسة الخشنة والمراحيض الموحلة، ثم تذهب في الأماسي مع «تانيا» إلى المدرسة نفسها لحضور الدروس. أحياناً، ما كانت الفتاتان تصلان إلى المدرسة، وتغيبان عن الحصص الفقيرة للمُدّرّسين النعسين. تحددت علاقتها بـ«تانيا» مثل العلاقة بين شقيقتين مع العلم أن الأخيرة، وهي الأصغر عُمرًا، قد شغلت على نحو غير ملحوظ مكان الشقيقة الكبرى مع انتقال «ياسيا» إلى منزلهم، وما عاد عشقها لـ«ياسيا» مُتقدًا ومتوترًا.

غالبًا ما كانت الفتاتان تصعدان إلى حجرة «تانيا» في العلية المشمسة، فتجلس «تانيا» متموضعةً في وضع «اللوتس» وتعزف موسيقاها الرديئة على المزمار، أما «ياسيا» فتتكور عند قدميها وتقرأ بهمس لائغ بعض الشيء مسرحيات «أوستروفسكي» المحتضرة، فقد كانت تستعد للانتساب إلى مدرسة التمثيل.

تأثرت «صونيا» بحماسة «ياسيا» للقراءة، وخيل إليها أن «تانيتشكا» ستجذب بالمعية إلى الثقافة الكبرى. لكنها أخطأت في تقديرها.

إذا ما تحدثت الفتاتان عن أمر ما فإن «ياسيا» كانت تكتفي في أغلب الأحوال بأداء دور المستمعة اللطيفة. كانت تصغي إلى مغامرات «تانيا» الغرامية بلا أي اهتمام خاص، وبلا أي تعاطف داخلي. بدت حماسة صديقتها غريبة عنها تمامًا، أما «تانيا» فكانت تُعلل مُخطئةً لامبالاة «ياسيا» بقلة تجربتها الخاصة مقارنة بغنى ما عانته صديقتها. حتى إنها لم يخطر في بالها أن «ياسيا»، للمرة الأولى منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها، قد تحررت من ضرورة إدخال «أشياهم المُقرفة» في جسدها غير المهتم على الإطلاق...

أنهك حضور «ياسيا» «روبرت فيكتوروفيتش»، فقد كان يتذكّر ذلك المشهد في الغرفة المتطرفة في الغسق المبكر من اليوم الأول في السنة مثل وسواس ومثل حلم غريب يتلصص عليه. صابرين ينظر إلى «ياسيا» الآن بطرف عينه فقط، مُسترقاً الاستمتاع لناظريه ببياضها الهادئ، وينصهر في نار الرغبة الفتية. لم يسمح لنفسه بالقيام حتى بأدنى حركة نحوها، لكن ليس لأي دوافع أخلاقية صغيرة. الرغبة كانت رغبته، والمرأة لم تكن امرأته، وعدا ذلك، لم يكن بإمكانها أن تكون امرأته وهي تشغل المكان المحرّم إلى جانب ابنته بفضل مساعي «صونيا».

كان ينظر ساعاتٍ إلى بياض الثلج المتبدل برقة من الإنارة والرطوبة خلف النافذة، ويمعن النظر في الجانب الأبيض الصهور من الإبريق الخزفي، وإلى حواف ورقة الرسم

ذات الحبيبات الضخمة على المنضدة، وإلى التجسيمات
الجصية البيض والشاحبة لنقوش قديمة تظهر عليها
بصعوبة أجساد حروف أبجدية غابرة.

عند انتهاء الشهر الثاني بدأ يرسم من جديد - بعد عشرين
عامًا على التمرينات في المعتقل، وعلى النسخ النزوي
للطرائد المُملة.

الآن صار ذلك تصويرًا لطبيعة صامته بيضاء، سكب فيه
«روبرت فيكتوروفيتش» أفكارًا مُعقَّدة عن طبيعة البياض،
وعن الشكل، وعن البنية التي تُخضع البداية الفنية؛
وكانت المقاطع والكلمات في أفكاره هي السكريات
الخزفية والمناشف البيض القطنية، والحليب في العلبه
الزجاجية، وكل ما كان يخيل للنظرة العادية أبيض بينما
يراه «روبرت فيكتوروفيتش» دربًا مُعذَّبًا في بحثه عن
المثالي والغامض.

مرّة، حين بدأ الشتاء يهيم بالرحيل، وبدأت الروعة
الثلجية في حديقة «بيتروفسكي» تذوي وتضمحل،
خرجوا في الصباح الباكر في وقت واحد إلى المدخل:
«روبرت فيكتوروفيتش» مُمسكًا بحمالتين للوحات ولفافة
من الورق القاسي، و«ياسيا» حاملةً حقيبتها الحمراء
القماشية التي برز منها كتابان مدرسيان مسائيان.

- امسكي من فضلك.

مد لها اللفافة وقد خامره إحساس مُبهم بأن شيئاً ما مُشابهاً
قد حصل في مكان ما في السابق.

جذبت «ياسيا» على عجل اللفافة نحوها بينما التقط
الحُمَّالتين على نحو مُريح.

اقتрحت عليه الفتاة من غير أن ترفع ناظرها:

- هل أساعدك في حملها؟

صمت، فرفعت رأسها وكانت المرّة الأولى خلال عيشهما
معاً تحت سقف واحد التي تنفذ فيها حدقاته الحادتان
إلى لُب عينها المستكينة. أوماً لها فأسبلت موافقة رأسها
الملفوف بمنديل من الوبر الأبيض، وسارت وراءه وهي
تقتفي بحدائها المطاطي الطفولي وبطريقة سحرية آثار
خطواته.

لم يلتفت إلى الخلف خلال طريقهما غير الطويلة كلها.
ووصلاً تبعاً إلى مدخل البناء كثير الطبقات حيث كانوا
ينون بمثابرة وعزم، في الدهاليز الطويلة، والباب قرب
الباب، الفن الاشتراكي مدفوع الأجر، وقد تراكمت في
هذه الدهاليز الكثيبة منتجات جانبية كبرى تصور عملاق
الفكرة الأصلع...

سمح لـ «ياسيا» بالدخول قبله مُستندًا بظهره إلى جنب
النصب الغرائبي وهو يسند الباب بقدمه على نحو أخرق،
وحين اصطفق الباب شعر بضربات قلب قوية وخافته،
لكن ليس في صدره، بل في مكان ما في أعماق بطنه.
صعدت ضربات القلب فيه إلى الأعلى مثل الشمس في
الأفق، وملاً الهدير البحري رأسه وصدغيه، حتى أطراف
أصابعه. وضع الحاملين وأخذ اللفافة من يدي «ياسيا».
وهنا تذكر متى كان ذلك.

ابتسم وهو يضع يده على وبر منديلها المتبلل، أما هي
فراحت تحل برشاقة الأزرار الكبيرة لمعطفها المحاك
يدويًا، والذي قضت كثيرًا من الأماسي في خياطته
مع «صونيتشكا» من قطعة قماش منقوشة قديمة.
كانت موضحة الأزرار الكبيرة طاغية في تلك السنة،
لذلك كانت تنورة «ياسيا» وبلوزتها محاكتين بأسراب
من الأزرار البنية والبيض، وقد راحت بعد أن رمت
المعطف تسحبها بجدية واعتناء الواحد تلو الآخر من
عراها المحبوكة بدقة.

ضربات القلب التي وصلت إلى حد سماع صوتها وملأت
أدق الشعيرات توقفت فجأة، فهي قد جلست بهدوء يعمي
الأبصار على الأريكة المكسورة ضامة تحتها ساقيها

الممتملتين، ثم حررت شعرها المربوط بقطعة من المطاط على أعلى رأسها، وراحت تنتظره حتى يخرج من سباته ويأخذ النزر اليسير مما لم تبخل به عليه...

صارت «ياسيا» منذ ذلك اليوم تهرع يومياً تقريباً إلى المحترف. بدت حكايتها حارة وصامتة صمتاً غريباً، فكانت تأتي عادة وتجلس في الأريكة التي اختارتها مرة وإلى الأبد، وتُطلق شعرها، فيضع الإبريق على الموقد ويغلي الشاي الثقيل، ثم يُسقط في الكوب المطلي بالمينا الأبيض خمس قطع من السكر - ما كان بمقدورها أن تشبع من كل شيء حلو منذ كانت في ملجأ الأطفال - ويضع أمامها السكرية الخزفية البيضاء لأنها لم تكن تكتفي باحتساء ما في الشاي من سُكر وحسب بل تقضم قطعه أيضاً.

كان ينظر إليها طويلاً وهي تشرب شرابها ببطء، ويُمعن الفكر دائماً ببياضها الذي يشع أمامه، أسطع من قوس قزح، على خلفية الطلاء الأبيض الباهت للجدار الفارغ. بريق ميناء الكوب في يدها الوردية، لكن البيضاء على الرغم من كل شيء، وقطع السكر الضخمة بانكساراتها البلورية، والسماء الضاربة إلى البياض خلف النافذة - هذا الطيف اللوني كله ناسب بحكمة وجهها البيضوي

الأبيض الذي كان بياضه بياضاً عجيباً ودافئاً وحيّاً، وكان هذا الوجه النعمة الأساسية التي نبع منها كل شيء ونما وعزف، وغنى لسر الأبيض الميت والأبيض الحي.

كان يتمتع ناظره بها، أما هي فقد أحست بذلك وشمخت تحت وطأة نظرتة وذابت بسبب من الاعتداد الأنثوي الصغير، واستمتعت بسُلطتها الكاملة لأنها كانت تعرف أنها إن قالت له جملتها الطفولية الخالية من الحياء: «هل تريد مرّة واحدة؟»، فسيهز رأسه موافقاً، وسيحملها إلى التخت المغطى بالسجادة القديمة، وإن لم تفعل فسيظل المسكين الأحمق والعجيب والمميز جداً، مُحملقاً بها هكذا، وسيُحبها بجنون...

«بجنون» - كررت هذه الكلمة في قرارة نفسها، ولا مست ابتسامة الاعتزاز شفيتها قليلاً، فشر بتفوقها الغبي، لكنه ظل ينظر وينظر إلى أن قالت:
- انتهينا... سأذهب...

لم يوجه إليها الأسئلة إطلاقاً، كما أنها لم تُحدثه عن نفسها بأي شيء، إذ لم يكن ثمة أي حاجة إلى ذلك. انجذابه اللامحدود لها كمثّل رغبتها الأكيدة في أن تكون إلى جانبه لم يحتاج إلى أي تأكيدات كلامية. لقد شعرت في حضوره بأنها قد وصلت إلى المكانة التي خططت

لها: أن تكون غنية وجميلة وحُرّة. ولم تعد ثمة حاجة إلى مدرسة التمثيل.

بدأ مع حلول منتصف أبريل يرسم صورة بورترية لها. رسم أول صورة مع إبريق للشاي وزهور بيض، ثم رسم أخرى، ثم تشكّلت مجموعة كاملة من الوجوه البيض بحيث يغيب واحدها في ظل الآخر ليعود ويبرز من جديد، وكانت هذه الوجوه مرتبطة بصرياً بأسلوب مُحكم فيما بينها.

رسم «روبرت فيكتوروفيتش» بسرعة، ومع أنها كانت إلى جانبه، وهذا مُهمٌ للفنان، إلا أن عمله هذا لم يكن تشخيصاً. بدا وكأنه يمتصها في ذاته ثم يُلقي نظرة إلى غرفة أسرارهِ. عمل طوال النهار وبات يقضي وقتاً أطول في المحترف. أحب من قبل أيضاً الابتعاد إلى هنا في وقت مبكر، لكنه الآن بات يقضي ليله كثيراً هنا.

في هذا الوقت الذي خفت فيه جاذبية المنزل وانتقلت حياة «روبرت فيكتوروفيتش» إلى المحترف، وبات هذا المحترف يستقبل بلُطف وبأسلوب القوادِ العشيقة الصامته في داخله، بدأت الغيوم تتلبّد فوق المنزل.

كانت منطقتهم السكنية غير الكبيرة مُهددة كلها بالإزالة. الأحاديث الملحة، لكن غير المقنعة، التي دارت منذ سنوات كثيرة تحققت في يوم من الأيام من خلال ورقة

مُقرزة مطبوعة بحبر سائح: قرار بهدم المبنى ونقل قاطنيه. لم تُسَلِّم باليد، كما هو مُتَّبَع في مثل هذه الظروف، بل أُرسِلت بالبريد، وقد اكتشفت «صونيا» هذه الورقة المشؤومة في صندوق البريد عند منتصف النهار، بعد التوزيع الصباحي.

هرعت «صونيا»، شادة على الورقة بأصابعها، إلى محترف زوجها، الذي لم تكن تذهب إليه عادة، مُلتزمة بحظر غير منطوق لكن معروف. كان «روبرت فيكتوروفيتش» يعمل وحيداً، فجلست «صونيا» في الأريكة الصارة تحتها، وجلس زوجها صامتاً قبالتها. نظرت «صونيا» مُطوَّلاً إلى لوحات النساء الذاويات بعيونهن البيض، وأدركت مَنْ هي ملكة الثلج الحقيقية. وأدرك «روبرت فيكتوروفيتش» أنها أدركت. لكن أحدهما لم يفه بشيء للآخر.

جلست «صونيا» صامتةً ثم وضعت الإخطار المُحزِن على المنضدة وخرجت من المحترف. وقفت عند المدخل مصعوقة، فقد خُيل إليها أن الثلج سيكون في كل مكان حولها - لكن خضرة مايو المتفاوتة تضافرت في الشارع وتماوجت، وكانت تغريدات الترام الطويلة تُرجع صدى ذلك اللون الأخضر.

سارت إلى منزلها، إلى ذلك المنزل السعيد والمحبوب

الذي سيفككون أخشابه كلها لسبب من الأسباب،
وانهمرت الدموع على وجنتيها الطويلتين الممتلئتين
بالتجاعيد، ثم همست فجأة بشفتيها الجافتين:

- كان ينبغي أن يحدث هذا منذ زمن، منذ زمن... لقد
عرفت دائماً أن هذا غير ممكن... لا يمكن لهذا أن
يحدث...

فهمت خلال هذه الدقائق العشر التي استغرقها سيرها
إلى المنزل أن سبعة عشر عاماً من الحياة الزوجية السعيدة
قد انتهت، وأنها ما عادت تملك شيئاً: لا «روبرت
فيكتوروفيتش» - ومتى كان ملكاً لأحد؟ - ولا «تانيا»
المختلفة كلياً عنها، وربما شابها أباها أو جدّها، لكنها
لم تُشبه طبيعة «صونيا» الهشة؛ ولا المنزل الذي كانت
تشعر في الليالي بتنهدياته ونحنحته، كما يشعر المُسنون
بجسدهم الآخذ بالاغتراب عنهم مع مرّ السنين... فكرت
«صونيا»: «يا لعدالة أن تكون إلى جانبه جميلة فتية ولطيفة
ورقيقة ومساوية له بتميزها وألمعيتها، ويا لحكمة الحياة
حين ساقته إليه في شيخوخته هذه الأعجوبة التي أجبرته
على الالتفات من جديد إلى أهم ما فيه، إلى الفن...».
دخلت غرفتها خائفة العزيمة، خفيفة، والطين الشفاف
يملاً أذنيها، واقتربت من خزانة الكتب وسحبت كتاباً

كيفما اتفق، ثم استلقت وفتحته عند المنتصف. كان ذلك كتاب «النبيلة الفلّاحة». كانت «ليزا» في ذلك الموضع قد خرجت لتناول الغداء مطلية الوجه بالبودرة البيضاء حتى الأذنين، ومُكحلة الرموش أكثف من السيدة «جاكسون». أدى «الكسي بيرستوف» دورَ مُشتت الذهن والساهم، وأُضيء على «صونيا» من هذه الصفحات نور الفرح الهادئ النابع من الكلمة المُكتملة والنُّبل المُتجسد...

بدأت عملية الجمع التي استغرقت أيامًا. عقدت «صونيتشكا»
الصرر، وملأت صناديق السجائر بالقدر والصحون،
والغريب أنها كانت في مزاج احتفالي: خُيل إليها أنها تدفن
الحياة التي عاشتها، وأن كل صندوق من هذه الصناديق
الممتلئة يحتوي على لحظاتها ونهاراتها ولياليها وسنواتها
السعيدة، وراحت تمسد بحنان هذه التوابيت الكرتونية.

تسكعت «تانيا» غير المهندمة في المنزل مُنقطعة عن
كل شيء، وراحت تصطدم بالأثاث المُزاح من أمكنته
المعتادة، والذي بدا وكأنه اكتسب مقدرة ذاتية على
الحركة. راحت أبواب الخزائن تفتح على نحو مفاجئ
والكراسي تمد قوائمها عشرات.

لم تساعد «تانيا» أمها، واستسلمت لمشاعرها وحدها،
وقد أصابها نفور عارم مما يحدث في المنزل.

ثمة حدث آخر شغلها عن جمع الأغراض: كانت هذه
المُنغلقة، غير المُتمرسَة في الكلام حتى ذلك الوقت،
تكشف لـ «ياسيا» عن أدق مكنونات روحها المُمزَّقة،
وكانت «ياسيا»، بصمتها الذكي، تبدو لـ «تانيا» الجليسة
الفريدة التي تتقبَّل معاناتها الضحلة تمامًا بحياد وودي مُثمر،
ما جعل «تانيا» تتعلَّم صوغ أفكارها والتقاط الصور تلقائيًا
في هذه المحادثات التي كانت أقرب إلى المونولوجات،
وهذا ما أدخل سرورًا عظيمًا إلى نفسها.

صديقاها الآخران، «أليوشا» المُتهتك الذي يقرب باطن
كل شيء في العالم إلى ظاهره، و«فولوديا» ذو الموهبة
العابرة للمحيطات والذاكرة المُلتهمَة لكل شيء والتي
تجعله من خلال معلوماته عن كل شيء في الدنيا معلبًا
بإحكام، يقحمانها عنوة في عوالمهما الخاصة المُغرية.
وحدها «ياسيا» تترك فسحة لها كي تفكر باستقلال، وتتأمل
بصوت مسموع، وتلمس وتختار تلك الأمور التافهة
التي يُكوّن منها الإنسان اختياريًا تلك الصورة الابتدائية
التي سيتطور من خلالها نسق الحياة اللاحقة كله. من هنا
تحديدًا وُلِدَ إحساس «تانيا» بقربها الشديد من «ياسيا»
وامتنانها المُبهم لها.

لحظت «تانيا» في صحوة نادرة من ولعها بذاتها أن

لدى «ياسيا» حياة خاصة بها. بيد أن محاولاتها جميعها للنفوذ إلى هذه المساحة المُحرّمة من الساعات النهارية - اللامدرسية واللامنزلية - اصطدمت بالصمت اللطيف أو الكلمات غير المحددة. الفرضية الأولى التي فكرت بها - قصة حب سرية - ولدت لديها سؤالًا كاويًا: مَنْ يكون؟

جاء الجواب عن هذا السؤال بأبسط ما يكون. التقت «تانيا» بأبيها و«ياسيا» قُرب محطة المترو لتصير شاهدة غير ملحوظة على مشهد مستحيل تمامًا: كانا يتناولان الثلجات في أثناء سيرهما ويتضحكان. انساحت الثلجات على شكل قطرات كثيفة فمسح «روبرت فيكتوروفيتش» عن وجنة «ياسيا» بقعة دبقة بيضاء بحركة من أصابعه جعلت «تانيا»، الخبيرة الكبيرة بقسم الملامسات، تنتفض بسبب شعور جديد بالغيرة لم تختبره من قبل.

لم تكن مصالح أمها النسائية ولا أي تصورات ذات طابع أخلاقي هي التي أقلقته. ما أثار استياءها كان أمرًا وحيدًا: الإخفاء الخسيس لهذه القصة الغرامية غير المُمتعة لـ «تانيا» من الجوانب كلها...

أقامت «تانيا» حفل تأنيب لـ «ياسيا». كانت هذه الأخيرة مُستعدة داخليًا منذ زمن لهذه الفضيحة أو تلك، فجمعت

حاجياتها على الفور، وانسلت من خلال المدخل
المُزخرف تاركةً «تانيا» وحيدة في مصابها وحيرتها: لقد
خُيل إليها أن علاقتها مع «ياسيا» أهم بكثير من أي قصص
غرامية...

كان «روبرت فيكتوروفيتش» في أثناء ذلك يفكك خزانة
الكتب التي ركبها بنفسه في وقت من الأوقات، حتى إنه
لم يلحظ غياب «ياسيا» في الحال.

أخيراً، جاء اليوم الذي رحلوا فيه أشياءهم. بدا الأثاث
المُستعمل والحميم والأليف، الذي اشتروه في سورة
من حماسة الامتلاك في سوق «برياوبراجينسكي»، بائساً
جداً في النور الساطع لذلك النهار الصيفي المُشمس.
حملوه كله في صندوق شاحنة مغلق ونقلوه إلى شقة
غير مريحة من ثلاث غرف في «ليخوبوري» الكئيبة،
حيث كان كل شيء - تحديداً كل شيء - فقيراً فقراً مُهيناً:
الجدران الهزيلة، والمطبخ الضيق بعرض المسافة بين
مرفقي «صونيا»، والحمّام غير المُكتمل.

وزع «روبرت فيكتوروفيتش» الأثاث بمساعدة من
«غافريلين»، وبدت كل قطعة منه وكأنها تقاوم بعناد
ولا تريد أن تشغل المكان المُخصَّص لها، فبرزت كلها
بزوايا زائدة ولم يكف بضعة سنتيمترات في كل مكان.

اضطر «روبرت فيكتوروفيتش» إلى أن ينزع نعلة الجدار كي يحشر خزانة الملابس الصغيرة جدًا وذات الدرفة الوحيدة في الفجوة المخصصة لها، وكادت «تانيا» أن تبكي فوق الصندوق المقيد ذي الغطاء المحذب الذي كاد أن لا يجد له مكانًا في المسكن الجديد.

أمرت «صونيا» بوضع تخت «تانيا» وسرير «ياسيا» في الغرفة التي تلي غرفة الدخول، وقالت:

- ستكون هذه للعداري.

شنت «ياسيا» أذنيها بعد أن طلبت منها «صونيتشكا» المساعدة في الانتقال. لم تكن تستطيع أن تستوعب ما يحدث من حولها بأي شكل من الأشكال، لكن هذا لم يكن مهمًا إلى هذا الحد في نظرها، وحرصها لم ينصب على هذا المنزل بل على أمر مُغاير تمامًا، وقد خيل إليها أنها ما زالت تمسك بيديها بإحكام بالأمر الأهم.

أخرجت «صونيتشكا» من مكان ما حقيبة بُنية كبيرة، وأخرجت منها المفروش السحري مع المناديل، والكستليتة الباردة وحساء «الكفاس» (*) المبرد من الحافظة.

(*) مشروب روسي مُنعش قديم حامض المذاق ويُحضّر من منقوع الجاودار والشعير. (المترجم).

وضعت «صونيتشكا» قطعة جيدة كالسابق في صحن «ياسيا»، فابتسمت هذه الأخيرة ابتسامة شكر. بدت لها «صونيتشكا» مثيرة للدهشة، وحاولت أن تستوعب الأمر ذهنيًا: «أوربما تكون خبيثة ببساطة». لكنها في قرارة نفسها كانت تعرف أن الأمر ليس كذلك.

فجأة أجهشت «تانيا» بالبكاء في أثناء الغداء، ساحبةً مرفقيها، وراحت تهز شعرها وصدرها، ثم بدأت تُقهقه على نحو هستيري، وحين انتهت سورتها على نحو غير مُتوقَّع أعلنت وهي لا تزال مُبللة بالدموع والماء المصبوب عليها أنها سترحل على الفور إلى مدينة «بيتر».

قادتها «ياسيا» إلى غرفة العذارى الجديدة والتي لم يكن مُقدَّرًا لها قطُّ أن تكون مأوى لأي عذراء. اندستا في فراش «ياسيا» التي نزعَت الرباط المطاطي عن ذيل شعرها السميك على قمة رأسها، وتصالحتا تمامًا وإحداهما تمسَد شعر الأخرى.

غير أن «تانيا» لم تتراجع عن قرارها، وسافرت في ذلك المساء نفسه إلى شاعرها الذي يُدخِّن العشبَة الحلوة.

سافر «روبرت فيكتوروفيتش» و«غافريلين» و«ياسيا» إلى

«ماسلوفكا»(*) لتبقى «صونيتشكا» وحيدة في أول أمسية لها في «ليخوبوري» بعد أن ودّعت أفراد عائلتها. فكرت حزينه بحياتها التي انهارت كلها، وبالوحدة التي حلت عليها فجأة، ثم استلقت على الصوفا في غرفة الدخول، وأخرجت من الحزمة المربوطة كتاباً، وكان بالمصادفة لـ«شير»، وراحت تقرأه حتى الصباح - مَنْ كان يظن أنه لن ينام من هذه القراءة - قرأت «فالنشتاين» مُستسلمة طوعاً للمُخدر الأدبي الذي أمضت شبابها كله فيه.

(*) تجمّع للفنانين نشأ في حي «ماسلوفكا العليا» في موسكو في الثلاثينيات من القرن العشرين. (المترجم).

خلافًا لظنون «صونيتشكا» لم ينو «روبرت فيكتوروفيتش» هجرها مُطلقًا. كان يأتي إلى «ليخوبوري» كل سبت لزمامًا، ثم يأتي مرّة أو مرّتين في الأسبوع برفقة «ياسيا» الهادئة. وبينما كانت هذه الأخيرة تذهب وتجيء في غرفة العذارى مُصدرةً حفيظًا حريريًا، وترتب هناك خرقها وخرق «تانيا» وأوراقهما، كان «روبرت فيكتوروفيتش» يستبدل بعبّات النوافذ أعرض منها، ويثبت الرفوف، وينشر خزّانة الكتب الجدارية ليصنع منها اثنتين، ويعلق صور بورترية «تانيا».

كانوا يتناولون طعام العشاء في الغرفة الوسطى التي خُصّصت لـ «صونيا». يتحدثون قليلًا عن «تانيا» التي مضى شهر على سفرها إلى مدينة «بيتر» وما زالت تؤجّل عودتها إلى «ليخوبوري» المرعبة.

وفي ساعة غير متأخرة كانوا يتفرقون للنوم، فتذهب

«ياسيا» إلى غرفة العذارى، و«روبرت فيكتوروفيتش» إلى الغرفة المنفصلة المخصصة له عند المدخل، أما «صونيتشكا» فتنهال بثقلها على الصوفا وتفرح وهي تغفو لأن «روبرت» هنا خلف الجدار الرقيق إلى يمينها، و«ياسيا» الجميلة الرقيقة إلى يسارها، والمؤسف فقط هو أن «تانيا» ليست هنا...

صباحًا تضع «صونيتشكا» سلطة الأمس والكستلية وعصيدة الحنطة السوداء في آنية صغيرة وتربط فوهاتها وتضعها في الحقيبة البنية وتُسَلِّمها إلى «ياسيا».

تشكرها «ياسيا» وهي تسبل عينيها:

- شكرًا يا عمّة «صونيا».

حين حل عيد ميلاد «ألكسندر إيفانوفيتش» شاء «روبرت فيكتوروفيتش» أن تأتي «صونيا» إلى المحترف كي يذهبوا إليه معًا، وكان هذا خروجهم الأسري الأول. «ألكسندر إيفانوفيتش» العذري والمُتَنَسِّك منذ ولدته أمه، والذي لم يرد ذكره قطُّ في الدسائس الغرامية مع السيدات خلال حياته كلها - ما أثار الشكوك في المجتمع الطَّيب حول خطايا أشد إثارة للاهتمام - كان الوحيد في المجموعة كلها الذي تقبل هذا الثلاثي على نحو طبيعي.

الزوار الآخرون، وخصوصًا السيدات الفنانات، راحوا يناقشون شهوانية في الزوايا هذا المثلث المُتكون والفاقع مثل العجينة المتفتحة من المعجن. تألمت «ماجدولين» الحمراء والنمشة بعض الشيء لحال «صونيتشكا» إلى حد أن أوجاع الشقيقة بدأت لديها. وعبثًا تألمت، فقد بدت «صونيا» مسرورة لأن «روبرت» اصطحبها معه، وفخورة بوفائه الذي أظهره، كما افترضت، لزوجته العجوز والقييحة، ومزهوة بجمال «ياسيا».

اهتمت قليلًا بشؤون المائدة بطلب من «ألكسندر إيفانوفيتش»، وراحت تُوزع على الضيوف الطعام المشتري جاهزًا، وإذ كانت لا تزال تتذكر آلام المعدة الأبدية لدى «ياسيا» فقد همست لها في أذنها:

- أظن يا ابنتي أن ورق الملفوف المحشي هذا سيء بعض الشيء... كوني حذرة...

بضع سيدات كن مُستعدات لاتهم «صونيا» بالتظاهر - لأن حالها كانت أكثر من جيدة في هذه التشكيلة التي بدت غير مُربحة لها؛ أرادت سيدات أخريات التعاطف معها والتعبير عن الإدانة لـ «روبرت فيكتوروفيتش»، لكن هذا بدا مستحيلًا، لأنهم سلكوا سلوك الأسرة وجلسوا إلى المائدة بمثلهم المنزلي: «روبرت فيكتوروفيتش»

في الوسط، وإلى يمينه «صونيتشكا» وقد علتة بمقدار نصف رأس، وإلى يساره سطعت «ياسيا» ببياضها والماسة الصغيرة الحادة على إصبعها.

لم يكن بالإمكان تخيل «روبرت فيكتوروفيتش» وهو يشتري في محل المجوهرات ماسة لفتاته، لكن ينبغي الاعتراف من باب العدالة بأنها كانت تحديدًا من فصيلة الصغيرات والضعيفات اللواتي يرغب المرء في إلباس أصابعهن بحجر كريم ووضع الفروع على أكتافهن المرتجفة بردًا.

لم يفسح «روبرت فيكتوروفيتش» المجال للغرباء، أي للأصدقاء، أن يُقدموا على الاختيار بين الزوجتين، ويعبروا عن المواساة، أو الشجب، أو الاستياء...

سارت الأمسية سيرًا طبيعيًا، وراح «غافريلين» التمل قليلاً يقلد البجعة المحتضرة، ثم «لينين»، ومرةً أخرى الكلب المعروف للجميع الذي يبحث عن البرغوث. مثلٌ بعد ذلك أحجيةً شخّص فيها شبحًا لم يكن يطوف بقدر ما كان يزحف في أوروبا، البقرة ذات القوائم الست والمؤلفة من السيدات الثلاث السمينات أنفسهن المغطيات بستارة من القماش الخام.

تذكروا جميعهم في هذا القسم من العيد «تانيا» التي كانت

أذكى مَنْ يبتكر الأحجيات التمثيلية، وتبادلت أنفذ النسوة
بصيرة الالتفات: يا للفتاة المسكينة!

عاشت الفتاة المسكينة في ذلك الوقت في جحر جميل
على جزيرة «فاسيليفسكي» عند صديقها «أليوشا»، في
مدينة «بيتر» التي كانت تعيش ليلها البيض. بدت فضولية،
ولا تهاب شيئاً، ومُستعدة كل لحظة لأن تلعب لعبة ما
بمتهى الجدية. لم يشعر على الإطلاق بأي رغبة في
الافتراق، وكانا ينظران بعينيهما الأربعة إلى الجهات كلها،
وقد لحظ «أليوشا» مندهشاً أن حضورها لا ينغص حياته
غير المُتنبأ بها، وربما يُضفي أيضاً إمكانات إضافية على
ذلك الجزء المُتعلق بالانقطاع عن «السوفوخا» كما كان
يسمي باحتقار طريقة الحياة السوفيتية المتبعة.

بعد مُضي يومين على الاحتفال لدى «ألكسندر إيفانوفيتش»
سافرت «صونيا» إلى «لينينغراد» لزيارة ابنتها، فانتظرتها
نصف نهار في الفناء، ثم جلست أربعين دقيقة مع «تانيا»
و«أليوشا» خلف المنضدة التي تراكم فوقها جبل من
الكتب والأسطوانات الموسيقية وبقايا الطعام والقناني
الفارغة، واحتست الشاي ثم عادت أدراجها في القطار
المسائي، بعد أن أوصلت ابنتها بأن تتصل أكثر بعمتها،
وبعد أن تركت لها نقوداً.

لم تستطع «صونيا» أن تغفو في القطار، وراحت تُفكر طوال الوقت بالحياة الرائعة التي تعيشها ابنتها وزوجها، وبالازدهار الشبابي من حولها، وكم كان مؤسفًا أن كل شيء عندها قد انقضى، وكم هي سعيدة لأن كل هذا قد كان في حياتها... هزّت رأسها بطريقة عجائزية، مُستسلمة لهزات عربة القطار، ومتنبئة بمرض التشنج اللاإرادي الذي ستُصاب به بعد انقضاء عقدين.

بعد ذلك حل الشتاء مرّة أخرى، وكان على الفتاتين أن تُنهي المدرسة، لكنهما تركتاها. ظلت «تانيا» تسافر طوال الشتاء ضمن خط سيرها المعتاد، إذ كانت تتخاصم دائماً مع «أليوشا» وتعود إلى المنزل، غير أن «ليخوبوري» كان يُصيبيها بالكآبة فتعود مرّة أخرى إلى محبوبتها مدينة «بيتر».

رسم «روبرت فيكتوروفيتش» طوال الشتاء، وأصابه نحول شديد، لكن وجهه أشرق مع ذلك، وصار لطيفاً مع الجميع. عاشت مساكنته الصغيرة بهدوء قُربه، مخشخشة تارة بأغلفة قطع السكاكر ومحفحة تارة بالحرير الرخيص - كانت تخطط لنفسها باستمرار أثواباً متنوعة الألوان ومُفضّلة على نمط وحيد، والإبرة تبرق بريقاً خفيفاً - وتارة ثالثة تتصفح المجلات البولونية.

بدا الاهتمام ببولونيا في ذلك الوقت طاغياً، فقد هبّت

من هناك رياح الحرية الغربية التي تهاطلت قليلاً في أثناء
تحليقها فوق أوروبا الشرقية.

كفت «ياسيا» إلى ذلك الوقت عن إخفاء أصلها البولوني،
وتبيّن أنها تتذكر جيداً لغة الطفولة التي تحدّثت بها مع
أمها. كان «روبرت فيكتوروفيتش» يعرف البولونية إضافة
إلى اللغات الأوروبية الأكثر انتشاراً، وقد حثتهما هذه
اللغة اللطيفة الهامسة الجذابة على الحديث، فراح يروي
لها، كما روى في وقت من الأوقات لـ «صونيا»، القصص
الصغيرة المضحكة والأحداث غير المتوقعة والمُخيفة،
وكانت هذه حياته أيضاً على الرغم من أنها بدت حياة
أخرى بسبب من عفة شفوية، وكأنها تضع بين قوسين
تلك التي عرفتها «صونيتشكا» من أحاديثه.

ضحكت «ياسيا»، وبكت، وصاحت: «إزوس ماريا!»
- شعرت بالفخر وابتهجت وفرحت حتى إنها اختبرت
بعض الأحاسيس المُمْتعة التي لم تكن لتخطر على بالها
من قبل، على الرغم من تجربتها المبكرة والطويلة في
معاشرة الرجال.

أما هو فكان يمعن النظر طوال الوقت في عنقها النضر
أبداً وبشرة وجهها الجديدة والوبر الأبيض الخفيف تحت
حاجبها الضيق، ويفكر بالقيمة الثمينة للمادة الشابة،

وبذلك الشكل من الكمال الذي تحدث عنه العبقري الروسي الوحيد قائلًا: «لم توهب أن تكون ذكية(*)».

كان أسرُ «روبرت فيكتوروفيتش» مُثمرًا، وقد اضطر إلى أن يبني في محترفه سقيفة جديدة إذ لم يكن فيه مكان ليحتوي حمالات اللوحات. أنهى سلسلته البيضاء، ولم يتحقق له الاكتشاف كما خُيل إليه. كان يحفر في تلك التربة التي أُتيحت له، وهي لم تكن قليلة، لكن السر نفسه الذي كان يعد بالكشف عن نفسه قريبًا جدًا ابتعد، مُبقيًا لديه ألم الاقتراب الحلو، والمُمثلة الحقة لتلك الروعة المدمرة التي تغلّبت على تعبه وعمره واهتلاك بدنه كله. لم تكن تُجهد «روبرت» المُسن أعمال الحب المُفْرِط.

في نهاية أبريل، وفي منتصف ليلة رطبة من ليالي فصل ذوبان الثلج، شد بقوة كتفي «ياسيا» ودس بثقل رأسه المُنتفض في الوسادة الصلبة.

مضى بعض الوقت قبل أن تُدرك «ياسيا» أنه يحتضر. قفزت وهي تزعق خارجةً إلى الدهليز الذي كانت تفضي

(*) جملة مُقتبسة من رواية «تولستوي»: «الحرب والسلام».
(المترجم).

إليه أبواب سبعة محترفات أخرى. لم يسكن الفنانون هنا، وقليلون منهم من بقي لقضاء الليل في هذا المكان. انتزعت قبضتين من قبضات الأبواب المجاورة ثم اندفعت من الطبقة الثالثة إلى الأسفل، إلى الهاتف الذي كان موجودًا عند البوابة.

زعقت العجوز ذات الجديلة المفكوكة قليلاً بصوت خافت حين رأت «ياسيا» عارية، لكن هذه الأخيرة دفعتها وهي تقول:

- الإسعاف، بسرعة... الإسعاف...

وراحت تطلب الرقم بيدين مُرتجفتين.

حين وصل الأطباء كان «روبرت فيكتوروفيتش» قد قطع الأنفاس. استلقى على بطنه داسًا وجهه القاتم في الوسادة، ولم تستطع «ياسيا» أن تقلبه.

ظروف الموت كانت واضحة.

هدر صوت الطبيب السمين المُنفر الذي فاحت منه رائحة الكحول وطعام غريب:

- نزيف في الدماغ!

وسجل رقم هاتف المشرحة.

هبط العمال الصحيون إلى الأسفل وهم يقرقعون بالحماله
التي لم يكن لها نفع.

قال أحدهم:

- مات المُسن فوق امرأة. امرأة فتية.

رد آخر:

- وماذا في ذلك؟ هذا أفضل له من أن يتعفن في المستشفى.

لم يكن ثمة هاتف في الشقة في «ليخوبوري»، فجاءت «ياسيا» إلى «صونيا» حين كانت هذه الأخيرة تهتم باحتساء فنجان القهوة الصباحي. هزّت «صونيا» رأسها هزّاً خفيفاً واحتضنت «ياسيا» وجذبتها إليها وراحتا تبكيان طويلاً في غرفة الدخول.

ذهبتا بعد ذلك إلى المحترف. كانت الجثة قد نُقلت إلى المشرحة. أزالتا بسرعة تلك الفوضى المُرعبة التي لا تُطاق، والتي ظهرت في المحترف بعد حضور فريقين من الأطباء وناقلي الجثث.

نزعت «صونيا» عن التخت المفروش المُخجل للعين الغربية وخبأته في حقيبتها. ثم ذهبتا للاتصال بـ«تانيا» في «لينينغراد»، لكن الجيران قالوا إنها سافرت إلى مكان ما مع «أليوشا». كانت «ياسيا» مُمسكةً بيد «صونيا» طوال

ذلك الوقت ومُتشبثة بها مثل الطفل الصغير. فهي كانت
يتيمة و«صونيا» هي أمها.

كان الوقت كافيًا للبوابة كي تروي بأدق التفاصيل لكل
مَن يرغب في الاستماع إليها قصة موت «روبرت» المُسن
الفاضحة، ثم بدأ الجيران الفنانون يتوافدون إلى المحترف
منذ الظهر وكلُّ منهم يحمل ما عدّه مناسبًا لمثل هذه
الظروف: زهورًا، فودكا، نقودًا...

تشكّل في أثناء ذلك رأي عام: أشفقوا على «روبرت»،
وحقدوا على «ياسيا» واحتقروها. أما الموقف من «صونيا»
فكان أكثر تعقيدًا، إذ انتظروا منها شيئًا ما وراحوا ينظرون
إليها باهتمام ولكن عمومًا بمواساة تامة.

في وقت متأخر من المساء، حين بقي في المحترف
الأصدقاء المُقربون فقط، قالت «صونيا» بحزم مُفاجئ
بعد بكاء صامت خالٍ من الدموع:

-دبروا صالة كبيرة. أريد أن تُعلّق هذه اللوحات كلها حيث
سيُوضع التابوت!

وأشارت إلى السقيفة في الأعلى حيث كانت حملات
اللوحات موجودة.

تبادل «الباربيزوني» و«غافريلين» النظرات وأوماً بالموافقة.
وهذا ما حصل.

خصص صندوق الفنانين الصالة، وعلّقوا اللوحات في العشية، وقد تبين أن عددها اثنتان وخمسون. أدارت «صونيا» عملية توزيعها إذ كان من المُحال أن يستطيع أحد غيرها فعل ذلك على نحو أفضل. فجأة استيقظت الشمس من مكان ما ساطعة سطوعاً مؤلماً وحاداً، وأعاقت عمل «صونيا» حتى إنها تدخلت فيه. تلاًّأت اللوحات وبرقت، فطلبت «صونيا» إسدال الستائر الحكومية القابلة للطّي، وحين أكملت التعليق رفعوا الستائر. كانت الشمس إلى ذلك الوقت قد هدأت، وتبين أن كل شيء في مكانه الملائم، حتى إن «روبرت فيكتوروفيتش» نفسه ما كان ليفعل أفضل من ذلك.

بدأ الناس يتوافدون في اليوم التالي عند الثانية عشرة، ولم يكن مُمكنًا تخيل كم من الناس هرعوا لحضور هذا الدفن. جاء مُسنون وقورون جنّوا المسامير الجلدية والميداليات من رسم البورتريهات الاستعراضية لكل من شاء، وجاء متوسطون من الموجة الجديدة المعتدلة، وجاء أولئك الذين لم يسمح لهم أعضاء الاتحاد الموقّرون

حتى بتخطي العتبة - مُشاغبون ومُتسلِّقون وأتباع الطليعة
الرثون.

لم يكن هذا المعرض الجنائزي مُتاحًا للنقاش. وبالفعل
«روبرت فيكتوروفيتش» نفسه لم يشعر يوماً بالحاجة إلى
مناقشة عمله.

وُضع التابوت في منتصف الصالة، وكان وجه المُتوفَّى
قاتماً وكأنه مسكوب، ووحدهما اليدان المُتصالبتان على
الصدر كانتا تلمعان ببياض جليدي من ذلك الصنف الذي
سمَّاه «روبرت فيكتوروفيتش»: «الأبيض الميت».

التصقت «ياسيا»، المُرتدية ثوبًا حريريًا أسود،
بـ«صونيتشكا» الكبيرة التي لا شكل لها، وراحت تطل
من تحت يدها مثل فرخ من تحت جناح بطريق. لم تحضر
«تانيا»، إذ لم يعثروا عليها في آسيا الوسطى المرححة التي
سافرت إليها مع «أليوشا» بحثًا عن المراعي الخضراء.

بقي الهمس كله والجدل كله حول هذه الميتة في غرفة
خلع المعاطف، أما هنا في الصالة فالتزم الصمت حتى
المُتعتشون إلى التسلل إلى أحشاء الآخرين. اقتربوا من
«صونيا» وتلفَّظوا بكلمات المواساة الخرقاء، وراحت
«صونيا» تدفع «ياسيا» إلى الأمام قليلًا وهي ترد آليًا:

- نعم، يا لها من مصيبة... يا للمصيبة التي انهالت علينا...

أما «تيملر» الذي حضر برفقة عشيقته الشابة ليودع صديقه القديم، فقال بصوت دقيق وحزين:

- يا للجمال... «ليا» و«راجيل»... لم أعرف قطُّ كم يمكن أن تكون «ليا» جميلة.

وهب الله «صونيتشكا» حياة مديدة في شقة «ليخوبوري» -
حياة مديدة ووحيدة.

تزوَّجت «تانيا» تدريجياً من «أليوشا»، وكان مهرها تلك
المدينة السحرية غير المريحة التي لا يعيش فيها سوى
الناس المعتزين بأنفسهم والمستقلين، فقد صارت من
سكان «بترسبورغ». تفتَّحت مواهبها في وقت متأخر،
وتبيَّن بعد العشرين من عمرها أنها مُتَمَكِّنة على نحو غير
مُتَوَقَّع من العزف والرسم، ومن كل شيء تقع عينها الحائرة
عليه. تعلَّمت الفرنسية بسهولة ثم الإيطالية والألمانية -
وحدها الإنجليزية كانت تكن لها نفوراً غريباً. ظلت تتلاطم
في الحياة إلى أن هاجرت منتصف السبعينيات إلى إسرائيل
وعلى يدها رضيع بعمر نصف العام وعلى كتفها حقيبة،
بعد أن افتقرت عن «أليوشا» وعن زوجين وجيزين آخرين.

حصلت بعد فترة قصيرة على وظيفة رائعة في هيئة الأمم المتحدة، وقد ساعدتها في ذلك إلى حد ليس بالقليل شهرة والدها العالمية.

عاشت «ياسيا» خلال عدة أعوام عند «صونيتشكا» في شقة «ليخوبوري». رعتها «صونيتشكا» بحنان، ورعًا وعرفانًا بفضل العناية الإلهية التي أرسلت إلى زوجها الغالي «روبرت» مثل هذه الحلية ومثل هذا العزاء في سني شيخوخته.

عادت «ياسيا» إلى فكرة الانتساب إلى مدرسة التمثيل لكن بلا تصميم نوعًا ما، ومارست مع «صونيتشكا» سرور الأشغال اليدوية، فكانتا تحوكان تارة كنزة غير عادية لـ «تانيا»، وتارة تخيطان تلبية للطلبات، لكنهما كانتا أغلب الأوقات تجلسان وتحسبان القهوة المُغرقة في السواد مع فطائر العسل التي تحضرها «صونيتشكا». بدأت «ياسيا» تدوي تدريجيًا، حينئذ عثرت «صونيتشكا» في بولونيا، من خلال تبادل كبير للرسائل في السر، على عميتها وجدتها اللواتي لم يكنَّ أرسنقراطيات إطلاقًا بل متواضعات الأصل. سافرت «ياسيا» إلى بولونيا مزودة من «صونيا» بكل ما يلزم، وسرعان ما انتهت هناك حبكتها الحكائية نهاية طبيعية: تزوجت من فرنسي وسيم وفتي

وغني، وهي تعيش الآن في باريس، في مكان غير بعيد عن حديقة «لوكسمبورج» وعلى بُعد خطوات من المبنى الذي كان فيه مرسوم «روبرت فيكتوروفيتش» في وقت من الأوقات، لكنها، طبعًا، لا تعرف ذلك.

ظل المنزل المخلى بزجاجه المُحطَّم وآثار الحروق الصبائية الصغيرة عليه قائمًا في حديقة «بيتروفسكي» أعوامًا كثيرة أخرى بلا أي فائدة. وكانت الكلاب الشاردة والمُشردون يقضون الليل فيه، ومرّة عثروا فيه على رجل مقتول. انهار السطح بعد ذلك، ولم يُفهم مُطلقًا لماذا شتوا سكانه بهذه العجلة إلى الضواحي الخالية من الحياة.

انتشرت لوحات «روبرت فيكتوروفيتش» البيض الاثنان والخمسون في العالم كله. وما إن تظهر واحدة منها في مزادات الفن المُعاصر من جديد حتى تُصيب هواة جمع الأعمال الفنية بحال ما قبل النوبة القلبية. أما أعماله الباريسية التي سبقت الحرب فباتت أثمانها خيالية، وقد بقي منها القليل جدًّا - إحدى عشرة لوحة فقط.

تعيش العجوز السمينة «صونيا إيوسيفوفنا» في «ليخوبوري» في الطبقة الثالثة من بناء خُماسي الطبقات من الأبنية «الخروتشوفية». إنها لا تريد الانتقال إلى وطنها التاريخي الذي استوطنت فيه ابنتها، ولا إلى سويسرا

حيث تعمل هذه الابنة الآن، ولا حتى إلى مدينة باريس التي أحبها «روبرت فيكتوروفيتش» كثيرًا والتي تدعوها إليها ابنتها الثانية «ياسيا» باستمرار.

الصحة تتدهور، ويبدو أن مرض «باركينسون» قد بدأ عندها، فقد بات الكتاب يهتز في يديها.

ربيعًا تذهب إلى مقبرة «فوسترياكوفو» وتزرع عند قبر زوجها أزهارًا بيض لا تعيش أبدًا.

وفي الأماسي تضع نظارتها السويسرية الخفيفة على أنفها الشبيهة بالإجاصة، وتغوص في الأعماق الحلوة، أو الممرات المظلمة، أو المياه الربيعية.

عن المؤلفة

تُعتبر «لودميلا أوليتسكايا» «الكاتبة الأعمق والأهم» في الأدب الروسي المعاصر. ولدت في منطقة «الأورال» عام ١٩٤٣، وتخرجت في جامعة موسكو بماجستير في علم الأحياء. عملت أولاً كباحثة في معهد العلوم الجينية، ثم انتقلت إلى كتابة السيناريو، وعملت مديرة مسرح في موسكو. نشرت القصص القصيرة، ثم روايات مثلت كلُّ منها حدثاً أدبياً مهماً في روسيا. كتبت أيضاً قصصاً للأطفال، ومسرحيات عرضت على مسارح عديدة في روسيا وألمانيا وفرنسا وغيرها.

«لودميلا أوليتسكايا» هي أكثر كُتاب روسيا المعاصرة ترجمةً إلى اللغات الأخرى، وباعت أعمالها أكثر من أربعة ملايين نسخة في جميع أنحاء العالم. هي كذلك صاحبة الرقم القياسي في تاريخ الترشيحات لجائزة

البوكر الروسية، فقد وصلت خمسة من أعمالها إلى القائمة القصيرة، منها «صونيتشكا» عام ١٩٩٣. كما نالت «صونيتشكا» جائزة «مديسيس» الفرنسية للرواية الأجنبية عام ١٩٩٦ وجائزة «جيزوييه أتشربي» الأدبية في إيطاليا عام ١٩٩٨.

وقد حصدت الكاتبة الجوائز العالمية والتكريمات التالية:

- جائزة «بيني» الإيطالية عام ١٩٩٧
- جائزة البوكر الروسية عن «قضية كوكوتسكي» عام ٢٠٠١
- وسام «فارس السعفة الأكاديمية» في فرنسا عام ٢٠٠٣
- جائزة «إيفانوشكا» الروسية لأفضل كاتب عام ٢٠٠٤
- وسام «فارس الفنون والآداب» في فرنسا عام ٢٠٠٤
- الجائزة الوطنية للآداب في الصين عام ٢٠٠٥
- جائزة «بيني» الإيطالية عام ٢٠٠٦
- جائزة «أولمبيا» الوطنية لأكاديمية الأعمال في روسيا عام ٢٠٠٧
- الجائزة الوطنية الأدبية للكتاب الكبير في روسيا عام ٢٠٠٧

- جائزة «جرينزان كافور» الأدبية في إيطاليا عام ٢٠٠٨
- جائزة «رجال الأب ألكساندر» الألمانية-الروسية عام ٢٠٠٨
- القائمة القصيرة لجائزة «مان بوكر» الدولية عام ٢٠٠٩
- جائزة «جلوب» السنوية لمجلة «زناميا» الأدبية الشهرية في روسيا عام ٢٠١٠
- جائزة «بريميوباور/كافوسكاري» في إيطاليا عام ٢٠١٠
- جائزة «سيمون دو بوفوار لحرية النساء» في فرنسا عام ٢٠١١
- جائزة «أوليج تاباكوف» في روسيا عام ٢٠١١
- القائمة القصيرة لجائزة «بوكر العقدة» الروسية عن رواية «دانيال شتاين، مترجم» عام ٢٠١١
- جائزة «بارك كيونج-ني» الأدبية الدولية في كوريا الجنوبية عام ٢٠١٢

غرقت «صونيتشكا» في الكتب منذ صغرها، وعاشت بين شخصيات الروايات، غير مُكرثة بما يدور في الواقع من حولها، إلى أن تعرف عليها «روبرت فيكتوروفيتش» في قبو المكتبة العامة وطلب يدها، فتركت الكتب، وعاشت حياة بسيطة لكن سعيدة مع زوجها الفنان وابنتهما الوحيدة. لكن لم يفارقها يوماً الشعور بأنها لا تستحق كل هذه السعادة، فلم تُفاجأ عندما جاء ما يُهددها.

رواية قصيرة رائعة ومُحكّمة، ترصد التحولات النفسية العميقة لشخصياتها من خلال تفاصيل الحياة اليومية وعلى خلفية النظام السوفيتي الحديدي.

تحكي «أوليتسكايا» ببراعة قصة بطلة لا مثيل لها في كل الكتب التي تقرأها.



ولدت «لودميلا أوليتسكايا» عام ١٩٤٣. وهي أكثر كُتاب روسيا المعاصرة ترجمةً إلى اللغات الأخرى. وباعت أعمالها أكثر من أربعة ملايين نسخة في جميع أنحاء العالم. هي كذلك صاحبة الرقم القياسي في تاريخ الترشيحات لجائزة البوكر الروسية، حيث وصلت خمسة من أعمالها إلى القائمة القصيرة، منها «صونيتشكا».

«صونيتشكا» نالت كذلك جائزة «مديسيس» الفرنسية للرواية الأجنبية، وجائزة «جوزيبه أتشربي» الأدبية في إيطاليا.

